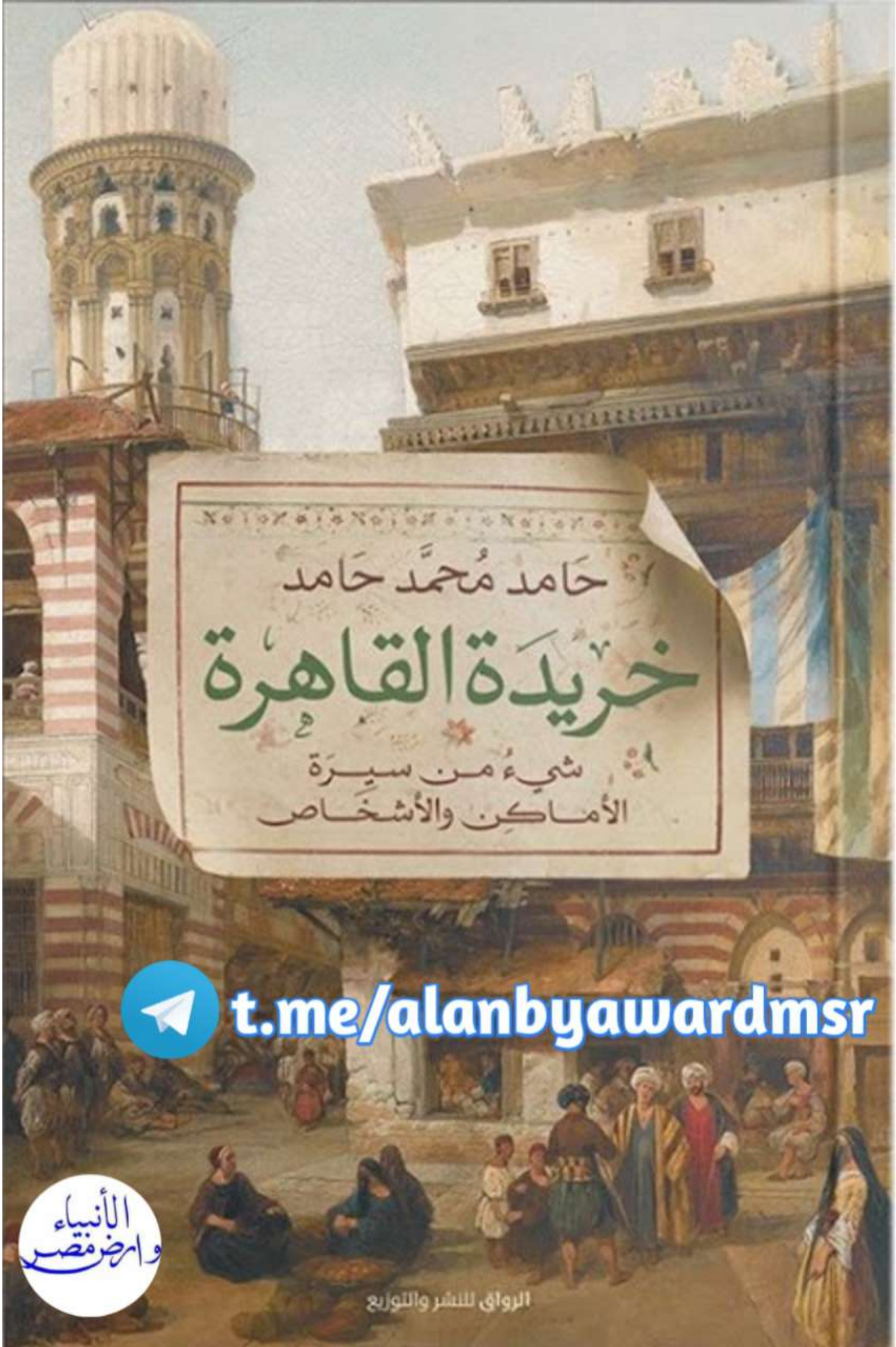

حَامد مُحمَّد حَامد
خرِيدَة القاهِرة
شيء من سيرة
الأماكن والأشخاص
t.me/alanbyawardmsr
الأنبياء وارض مصر
الرواق للنشر والتوزيع

خريدة القاهرة

شيءٌ من سيرة الأماكن والأشخاص

حامد محمد حامد

الأنبياء وارض مصر
t.me/alanbyawardmsr

الأنبياء وارض مصر

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

إهداء

إلى أمي.. صاحبة المقام العالي..

وإلى أخي «أحمد».. البقية الباقية لي من أبي..

وإلى «غادة محمد محمود»..

الزوجة والصاحبة والسكن..

نحن روحٌ حلّت بدنين!

وإلى «تميم» و«كرمة»..

هذا ما جنته يدا أبيكما.

الأنبياء وارثون
t.me/alanbyawardmsr

قبل أن تقرأ

هذا ليس كتاب تاريخ.. ولا كتاب آثار!

صحيحٌ أنك ستقابل كثيرًا من الوقائع التاريخية الموثَّقة، وكثيرًا من الإشارات إلى أماكن أثرية، لكن دعني أؤكد لك أن هذا الكتاب لا يهدف بالأساس إلى السرد التاريخي أو الشرح الأثري المتخصص، وبالتالي فلا يمكنك قطعًا، بقراءتك لهذا الكتاب، أن تُكوِّن صورة كاملة عن فترة تاريخية بعينها، أو عن أثرٍ ما، وعليه فلن تجد كبير اهتمامٍ هنا بذكر التواريخ بالتفصيل أو تقديم معلومات أثرية وافية.

أما إذا كنتَ مهتمًّا إلى هذه الدرجة بتصنيف وقولبة ما تقرؤه من كتب، فيمكنني أن أريحك فأقول: إن هذا الكتاب يستلهم روح الخِطط، أو هذا ما أتمناه على الأقل!

والخطط هي نوعٌ من الكتابة يُعنى أساسًا بالجغرافيا التاريخية، وببعض التجاوز يمكن أن نقول: إن موضوع الخِطط الأساسي هو تاريخ الأماكن..

لذا، فستلاحظ أن حكايات الكتاب ليست مُرتَّبة تاريخيًّا، فكما أنك لا تجد في القاهرة شارعًا فاطميًّا وآخر مملوكيًّا وثالثًا عثمانيًّا، فلن تجد كذلك مثل هذا التقسيم في الكتاب، وما ستجده هو تجليات الزمن على المكان الواحد، والخيط الدقيق الذي يجمع شتات الكتاب هو روح

t.me/alanbyawardmsr

الأماكن وحياتها، فكُن واثقًا بأن بطل الكتاب الأوحد هو المكان، ولا شيء سوى المكان!

ولعلك ستلاحظ أيضًا أنه لا وجود لكثيرٍ من الحكايات الشهيرة، مع تجاهُلٍ لشخصيات تاريخية ولفترات كبرى لحساب شخصيات ثانوية وهامشيةٍ أحيانًا، وهذا بالضبط ما يرمي إليه هذا الكتاب: الاحتفاء بعبقرية التفاصيل الصغيرة التي تجعلنا نرى التاريخ والأماكن بعينٍ جديدة.

يبقى لنا السؤال المنتظر عن مغزى عنوان الكتاب وعن معنى كلمة «خريدة»!

والواقع أنه يمكنني أن أصطنع الدروشة فأقول: إن الولي الصالح الشيخ أحمد الدردير ـ وسيرد طرفٌ من سيرته في الكتاب ـ قد أفاض عليَّ من بركاته وألهمني هذا الاسم وأنا في رحاب مقامه، تيمنًا بأرجوزته الشهيرة «الخريدة البهية» في علم التوحيد!

والحقيقة أبسط من ذلك بكثير؛ فلم أجد وصفًا أصدق ولا أدق لروح القاهرة من كونها «خريدة»، أي: لؤلؤة مكنونة، فالعاصمة لا تبوح بكل أسرارها أبدًا مهما بدا لك ذلك، وقاهرة اليوم بكل قسوتها وقبحها هي مدينة لا يُمكن أن نحملها على محمل الجد أبدًا، ودائمًا ما تُخفي في أعماقها خريدة مدهشة، تنتظر فقط من يصل إليها ويكشف عنها.

والحكايات التي يضمها الكتاب هي حكاياتٌ ذاتية تمامًا، بمعنى أنه من الوارد أن تستحضر حكاياتك الخاصة عن الأماكن التي ذُكرت في الكتاب؛ فالحكايات لا أول لها ولا آخر، ومشروع الكتاب أصلًا هو أن يبدأ كلٌ منَّا في نسج علاقته الخاصة جدًّا بالأماكن، علاقة فرديَّة

t.me/alanbyaawardnsr

قوامها التفاعل والذكريات الشخصية مع المكان، إضافة إلى تلمُّس روح المكان ذاتها، التي هي محصلة ما مرَّ على الأماكن من أحداث وشخوص عبر عمرها المديد؛ لذا فقد حرصت على ذكر المصادر التي رجعت إليها مُجمعة في نهاية الكتاب، ويمكنك أن تعرف مصادر كل فصل على حِدة باتباعك لـ QR code الذي ستجده في آخر الكتاب، وأغلب هذه المصادر متاح مجانًا على الإنترنت، آملًا أن تجد في تلك المصادر مدخلًا لمعرفة أوثق بالتاريخ وبالأماكن.

أما عن لفظة «الحكاية» التي ستقابلها مرارًا وتكرارًا في ثنايا الكتاب، فعليَّ أن أؤكد أن الحكايات بالنسبة لي ليست هدفًا في حد ذاته، بل ما تكتنزه الحكايات من ثقافة عصرها واجتماعه، وعليك إذًا أن تُفتش دائمًا عن الحكاية المختبئة وراء الحكاية!

t.me/alanbyawardmsr

الأنبياء وارض مصر

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

الأسد زُريق وبركة الزئبق!

لا نستطيع أن نُنكر أن أبا الجيشِ «خمارويه» كان حسن الحظ للغاية، فقد ورث حكم دولة شاسعة عن أبيه أحمد بن طولون، فغدا حاكمًا لمصر والشام بين عشية وضحاها.

ومن ضمن حسن الطالع أن «خمارويه» لم يتورط في حروب كثيرة، وهو ما جعله متفرغًا تمامًا لحياة العز والبغددة، ظانًّا أن حكمه سيستمر للأبد هو وذريته من بعده، ربما لهذا استفاضت كتب التاريخ في ذكر ما كان يعيش فيه «خمارويه» من بذخ لا مثيل له.

وأنت في ميدان السيدة عائشة، وأمامك على مرمى البصر مدرسة السلطان حسن، تذكَّر أن هنا كان قصر «خمارويه»، وأمام القصر كانت الحدائق تمتد حتى جامع أحمد بن طولون، وحاول أن تتخيل أن ساعتها لم يكُن هناك شوارع ولا مبانٍ كالتي نراها اليوم، فلم تكُن مدرسة السلطان حسن قد بُنيت بعدُ، ولا ما يحيط بها من مساجد بالطبع، بل إن القلعة ذاتها لم يكُن لها وجود وقتها!

كانت جدران القصرِ مطليَّة بماء الذهب، وكانت صور «خمارويه»

t.me/alanbyawardmsr

وهو يعبث مع جواريه مرسومة على حوائطه في كل مكان، أما حدائق القصر فكانت قصة أخرى، فقد استجلب «خمارويه» شتلاتٍ لكل ما قدر أن يصل إليه من نباتات من داخل مصر وخارجها، من الشام وإيران وتركيا، وصمَّم له مهندسوه نظامَ ريٍّ خاصًّا يناسب كل نبات على حِدة. والأعجب أنه قد اصطنع حديقة حيوان مفتوحة، فجلبَ لحدائقه الغزلان والطواويس وطيورًا من كل شكلٍ ولون، في حين كانت للحيوانات المفترسة أماكنها المنفصلة، بعضها للفهود والأخرى للنمور، هذا بالطبع غير الأماكن الخاصة بالأفيال والزرافات!

أما تربية الأسود فكانت هواية «خمارويه» المفضَّلة، وكان عنده أسدٌ يُفضِّله على باقي أسوده، كان هذا الأسدُ ذا عينين زرقاوين، فسموه «زريق» لذلك! وكان «زريقٌ» هو الحارس الشخصي لـ«خمارويه»، يتجولُ في القصر بحرية تامة، ويجلس بجوار «خمارويه» ليحرسه، وحتى في وقت النوم، كان «زريقٌ» يقعو بجوار سرير «خمارويه» حتى لا يتجرَّأ أحدٌ على إزعاجه.

لكن المشكلة كانت أن «خمارويه» لم يكُن يستطيع النوم أصلًا، فكان يشكو من أرق مزمن، وقد نصحه أطباؤه مرارًا بأن يجرِّب التدليك قبل النوم، لكن «خمارويه» كان يأنف من فكرة أن يلمسه أحد بيديه، فضلًا عن أن يُدلكه، هنا اقترح عليه أحد أطبائه هذا الحل العجيب: أن يحفر بركة ويملأها بالزئبق، ويسترخي على مرتبة ممتلئة بالهواء تطفو على سطح الزئبق، وستُهدهد المرتبة الطافية «خمارويه» وتهبُ له نعاسًا اشتاقت عيناه إليه طويلًا..

كما لو أنه لم تكُن هناك أعشابٌ أو عقاقير معروفة منذ أزمان سحيقة وتجلب لشاربها نومًا سريعًا، ولا حلّ هناك سوى بِركة الزئبق تلك!

t.me/alanbyawardmsr

فكلما تغلغلَتْ أحداث التاريخ في القدم، قرُبَ التاريخ من الأسطورة، وأصبح من العبث أن نأخذ حكايات التاريخ بحرفية كأنها حقائق حدثت بالفعل، فنصدق مثلًا أنه كان هناك بالفعل بركة مملوءة بالزئبق، أو أسد أشقر ذو عينين زرقاوين يهيم بلا قيد في قصر «خمارويه».

لكننا يمكننا أن نستشف ما وراء هذه الحكايات المرسلة كلها، أن عظمة وأبهة «خمارويه» لم يكُن لهما مثيل، وأن حرَّاسه كانوا شديدي القوة والبأس. ومع ذلك فالمؤكد أن «خمارويه» قد قُتل في النهاية على يد خدمه على الرغم من كل استحكاماته الأمنية، والمؤكد أيضًا أن قصره الأسطوري القادم من حكايات ألف ليلة وليلة، وحدائقه المدهشة التي كانت تمتد بداية مما سيصبح جامع السيدة عائشة وحتى جامع أحمد بن طولون، هذا كله دُمِّر تمامًا ولم يبقَ منه حجرٌ على حجر بعدما قُتل «خمارويه» بعشر سنين فقط!

t.me/alanbyawardmsr

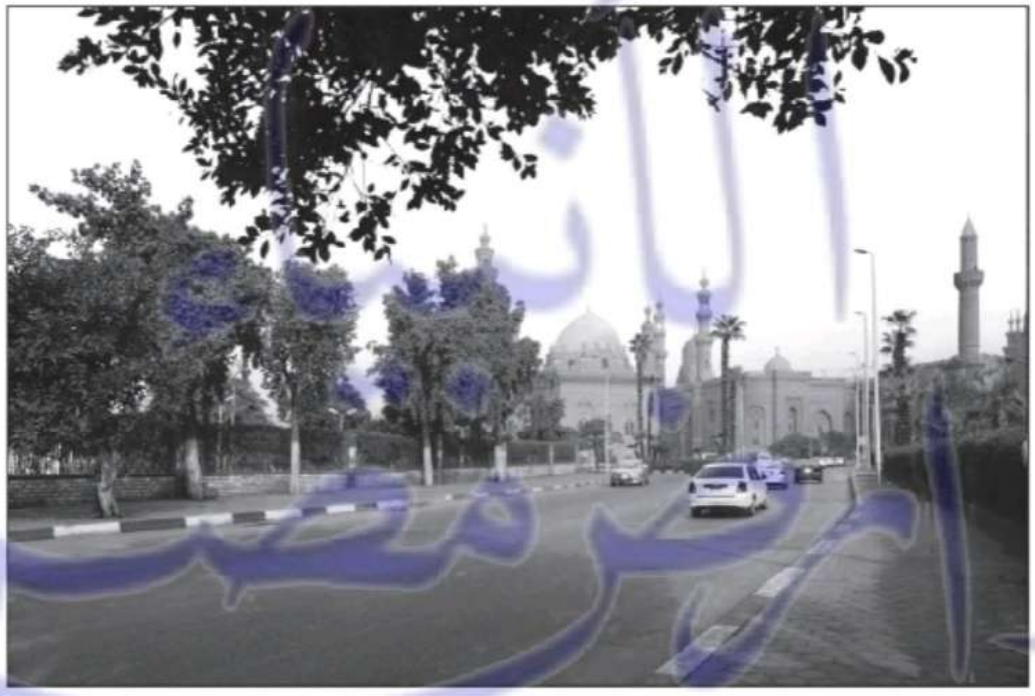

(حيث كان قصر خمارويه)

t.me/alanbyawardmsr

سليل بناة القاهرة!

لا مفرَّ لك، وأنت في القاهرة، من الحكايات القديمة!

الحكايات وحدها هي القادرة على جمع قطع «البازل» المتناثرة عبر الزمن، «بازل» الأماكن والتاريخ وحيوات الناس، وكم من حكايات وحوادث صغيرة، وربما تافهة، مرَّ عليها قرابة الألف عام، ومع ذلك لا تزال ممسكةً بتلابيبنا من دون أن نشعر!

كالحكاية التي تبدأ بوفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله..

كانت قواعد الإمامة الشيعية تنصُّ على انتقال الإمامة في الأعقاب، أي أن يرث الإمامة الابن البكر للإمام السابق، وبالتالي كان من المفترض أن يصبح الخليفة الجديد هو «نزار»، الابن الأكبر لـ«المستنصر». أما ما حدث فهو أن الوزير القوي الأفضل ابن بدر الدين الجمالي قد قرَّر

t.me/alanbyaward msr

أن يغيِّر من قواعد اللعبة، وأعلن أن «المستنصر» قد أوصى أن تكون الإمامة من بعده لابنه الأصغر المستعلي بالله، وليس لـ«نزار».

وعلى الرغم من كل الروايات التي تذكر أن العلاقة بين «نزار» و«الأفضل» كانت متوترة منذ زمن، وأن هذا ما دعا «الجمالي» إلى تغيير نظام الإمامة، فإن «المقريزي» يشير إلى سببٍ أكثر بساطة ومنطقية؛ فقد جمع «الأفضل» كبار قادة الجيش وحذَّرهم من مبايعة «نزار»، وحثَّهم على مبايعة أحمد المستعلي؛ لأنه «صغيرٌ يُؤمن جانبه ولا يُخاف منه».

أما «نزار» فعندما رأى أخاه الأصغر على العرش، فإنه قد هاج وماج وأبى مبايعته، وأعلن أن أباه «المستنصر» قد كتب له كتابًا بخطه بولاية العهد، وخرج مُسرعًا ليحضره، ويبدو أنه فطن أخيرًا إلى أن «المستعلي» قد تم إعلانه إمامًا بالفعل، وبالتالي فسيكون عهد أبيه له غير ذي قيمة، فأسرع حينئذٍ إلى الإسكندرية ليحتمي بأنصاره، وهناك أعلن نفسه إمامًا هو الآخر، وبعد صراعات دامية، استطاع «الأفضل» أن ينتصر على «نزار» ويعتقله في القاهرة؛ حيث سيقتله بطريقة مبتكرة: سيحبسه في زنزانة ضيقة ويبني حائطًا مصمتًا مكان الباب، باختصار: سيدفنه «الأفضل» حيًّا!

وقد يبدو أن مقتل «نزار» بهذه الطريقة سيُنهي حكايته للأبد، لكن المصادر النزارية ستزعم أن «نزار» لم يُقتل، وأنه قد استطاع الهرب من الإسكندرية والوصول إلى إيران؛ حيث أسس دولته الجديدة، كما ستزعم أيضًا أنه كان لـ«نزار» ابنٌ وُلد في القاهرة وفرَّ مع أبيه إلى الإسكندرية ثُمَّ إلى فارس، وبهذا استمرت سلالة «نزار»، ومن هذه اللحظة ستنقسم الشيعة الإسماعيلية إلى فرقتين كبيرتين: «المستعلية»، أتباع المستعلي بالله،

t.me/alanbyawardmsr

و«النزارية»، وهم من يرون أن «نزار» وأبناءه هم الأئمة الحقيقيون، وأن «المستعلي» وسلالته هم أئمة مزيفون سرقوا الإمامة والحكم من الإمام الشرعي نزار بن المستنصر بالله وتآمروا على قتله.

وفي إيران، سيؤسس الحسن بن الصبّاح دولة نزارية هدفها نشر التشيع الإسماعيلي النزاري، والانتقام من المستعلية الذين استولوا على الحكم في القاهرة، وسينجح ابن الصبّاح في إعداد جيشٍ من المقاتلين الأسطوريين الذين عُرفوا بـ«الفداوية»، وكانوا مقاتلين عقائديين، هدفهم الذي تربوا عليه طويلًا هو الموت كطريق وحيد للوصول إلى الجنة.

وعلى الرغم من كل الاحتياطات الأمنية التي اتبعها الآمر بأحكام الله، ابن المستعلي، فإن عشرة من الفداوية استطاعوا الوصول إلى القاهرة واغتيال الخليفة «الآمر»، صحيحٌ أنهم قُتلوا جميعًا على الفور، لكن ذلك غاية المراد بالنسبة إليهم، فسيذهبون إلى الجنة الموعودة أخيرًا!

فإذا ما مررت يومًا على جامع الأقمر، فتذكَّرْ أنه قد أُنشئ أيام الآمر بأحكام الله، الذي قتله الفداوية النزارية، وأن النزارية ما زال نسلُهم مستمرًّا إلى اليوم، وإن أقلعوا تمامًا عن ممارسة العنف، وتذكَّرْ أيضًا أن حفيد نزار بن المستنصر هو الأغا خان، إمام الإسماعيلية النزارية، الذي بنى «الأزهر بارك» وأهداها للمصريين تخليدًا لذكر أسلافه الفاطميين الذين بنوا القاهرة!

t.me/alanbyawardmsr

بسم الله الرحمن الرحيم

في عهد السيد
الرئيس محمد حسني مبارك
افتتحت السيدة سوزان مبارك
سيدة مصر الأولى
وسمو الأمير الأغاخان
حديقة الأزهر في ٢٥ مارس ٢٠٠٥م
الموافق ١٥ صفر ١٤٢٦هـ

DURING THE PRESIDENCY OF
H.E. MOHAMED HOSNI MUBARAK
AL-AZHAR PARK WAS INAUGURATED ON
25 MARCH 2005
BY THE FIRST LADY OF THE ARAB REPUBLIC OF EGYPT
H.E. MRS SUZANNE MUBARAK
AND
HIS HIGHNESS THE AGA KHAN

والحديقة هدية من سمو الأمير الأغاخان
لمواطني القاهرة تخليدا لذكرى أسلافه الفاطميين
الذين أسسوا مدينة القاهرة
وقد أنشأتها مؤسسة الأغاخان للثقافة
بالتعاون مع محافظة القاهرة

A GIFT FROM HIS HIGHNESS THE AGA KHAN
TO THE PEOPLE OF CAIRO, THE CITY FOUNDED BY
HIS FATIMID ANCESTORS, THIS PARK WAS BUILT
BY THE AGA KHAN TRUST FOR CULTURE IN
COLLABORATION WITH THE GOVERNORATE OF CAIRO

(اللوحة التأسيسية لحديقة الأزهر)

t.me/alanbyawardmsr

جامع سيدنا الفاكهاني

المساجد أسرار..

ستخسر كثيرًا إذا ظننت أن المساجد هي مجرد أماكن للعبادة، يبنيها عباد الله الصالحون ابتغاء الأجر والمثوبة فحسب.

ستخسر لأن المساجد كلها ستغدو في عينيك نمطًا واحدًا مُكررًا إلى الأبد، بيوتًا لله لا أكثر ولا أقل، ولن تلتفتَ أبدًا، والحال كذلك، إلى خصوصية كل مسجد، وكيف أن كل مسجد أو زاوية مهما صغُرت وراءها سرٌّ يميزها عمَّا سواها. والمسجد هو المكان الوحيد الذي يُلخِّص طبيعة العلاقة بين مُنشئه وبين الله، تبارك وتعالى.. لا أعني هنا مسألة الإيمان والتقوى والتقرُّب إلى الله بالأعمال الصالحة، بل أعني أنه مرتبطٌ بطريقة فهم الدين أصلًا..

فعلى سبيل المثال: في سنة ٥٤٣ للهجرة، كان واحدٌ من خدم الخليفة

الفاطمي الظافر بأمر الله يقفُ على سطح إحدى الدور، ولسببٍ ما التفت بناظريه إلى الزريبة المجاورة، فإذا به يلمحُ جزارًا قد أمسك بخروفين كي يذبحهما، وبعد أن فرغ من ذبح الأول، ترك السكين مُلقى على الأرض، وخرج ليحضر شيئًا من الشارع، وفي تلك الأثناء تسلَّل الخروف الثاني إلى السكين، وحمله بفمه وجرى به إلى أن ألقاه في البالوعة!

وحين عاد الجزار تحيَّر عندما لم يجد سكينه، وهنا أسرع الخادم إلى الخليفة الظافر، وحكى له ما رآه، فـ«الظافر» لم يكُن مجرد حاكمٍ عاديٍّ، بل كان إمامًا من ذرية الأئمة الفاطميين المقدسين، وحتى في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية، حين ذوى النفوذ السياسي للخلفاء الفاطميين لحساب نفوذ الوزراء المتنامي، ظلّت مكانة الأئمة الروحية بالغة عند جماهير الإسماعيلية في مصر وخارجها؛ فالإمامة عند الشيعة الإسماعيلية درجة لا مثيل لها، ومرتبة وسطى بين البشر والآلهة، وعليه فلا يمكن قطعًا أن تكون الحكاية التي رواها الخادمُ للإمام الظافر بلا مغزى، وقد اعتبر الظافر أن ما رآه الخادم هو رسالة له شخصيًّا من الله تعالى، وبسرعة منع ذبح الخروف الثاني، وأمر أن تُهدم الزريبة ويُبنى مكانها جامع تنفيذًا للأمر الإلهي!

t.me/alanbyawardmsr

ومع مرور الوقت وكرِّ السنين، اعتاد كثيرٌ من باعة الفواكه أن يقفوا ببضائعهم أمام جامع الظافر، وهو ما جعل الناس ينسون حكاية «الظافر» وخروفه، ويتعاملون مع الجامع على أنه جامع الفاكهانيين، وأخذت حكاية جديدة تختمر بهدوء، حكاية أحد أولياء الله الصالحين الذي كان يعمل فاكهانيًّا، وهو من قام بترميم هذا الجامع!

كانت حكاية سيدنا الفاكهاني شديدة الرواج أيام العثمانيين، حتى إن

الفاطمي الظافر بأمر الله يقفُ على سطح إحدى الدور، ولسببٍ ما التفت بناظريه إلى الزريبة المجاورة، فإذا به يلمحُ جزارًا قد أمسك بخروفين كي يذبحهما، وبعد أن فرغ من ذبح الأول، ترك السكين مُلقى على الأرض، وخرج ليحضر شيئًا من الشارع، وفي تلك الأثناء تسلَّل الخروف الثاني إلى السكين، وحمله بفمه وجرى به إلى أن ألقاه في البالوعة!

وحين عاد الجزار تحيَّر عندما لم يجد سكينه، وهنا أسرع الخادم إلى الخليفة الظافر، وحكى له ما رآه، فـ«الظافر» لم يكُن مجرد حاكمٍ عاديٍّ، بل كان إمامًا من ذرية الأئمة الفاطميين المقدسين، وحتى في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية، حين ذوى النفوذ السياسي للخلفاء الفاطميين لحساب نفوذ الوزراء المتنامي، ظلّت مكانة الأئمة الروحية بالغة عند جماهير الإسماعيلية في مصر وخارجها؛ فالإمامة عند الشيعة الإسماعيلية درجة لا مثيل لها، ومرتبة وسطى بين البشر والآلهة، وعليه فلا يمكن قطعًا أن تكون الحكاية التي رواها الخادمُ للإمام الظافر بلا مغزى، وقد اعتبر الظافر أن ما رآه الخادم هو رسالة له شخصيًّا من الله تعالى، وبسرعة منع ذبح الخروف الثاني، وأمر أن تُهدم الزريبة ويُبنى مكانها جامع تنفيذًا للأمر الإلهي!

t.me/alanbyawardmsr

ومع مرور الوقت وكرِّ السنين، اعتاد كثيرٌ من باعة الفواكه أن يقفوا ببضائعهم أمام جامع الظافر، وهو ما جعل الناس ينسون حكاية «الظافر» وخروفه، ويتعاملون مع الجامع على أنه جامع الفاكهانيين، وأخذت حكاية جديدة تختمر بهدوء، حكاية أحد أولياء الله الصالحين الذي كان يعمل فاكهانيًّا، وهو من قام بترميم هذا الجامع!

كانت حكاية سيدنا الفاكهاني شديدة الرواج أيام العثمانيين، حتى إن

واحدًا من أمراء المماليك اسمه أحمد كتخدا الخربوطلي قد زاره الفاكهاني في المنام، وأمره أن يجدد جامعه!

فقرر «الخربوطلي» أن يهدم الجامع ويبنيه من جديد بطريقةٍ تليق بمقام الفاكهاني، رضي الله عنه، لكن كانت هناك مشكلة بسيطة؛ فقد كسبَ أمواله كلها من الحرام!

وهكذا دارَ «الخربوطلي» على الشيوخ يستفتيهم في تلك المعضلة، هل يجوز له ترميم الجامع بأموال كسبها من الحرام؟ فأفتوه بأن ذلك لا يجوز، والحل أن يقترض أموالًا حلالًا ليبني بها بيتَ الله!

وهو ما تمَّ بالفعل..

والغريب حقًّا أنه لم يخطر على بال أحمد الخربوطلي قط أن تلك الأموال التي اقترضها سيرُدها مرّة أخرى بعد ذلك من ماله الحرام، فكلُ همِّه كان تنفيذ أمر سيدنا الفاكهاني بأي طريقة كانت، كما لو كان يرى أن تجديد الجامع أهم من أكله الحرام وظلمه عباد الله!

وأنت في الغورية تسيرُ متجهًا إلى باب زويلة، ووسط محلات المفروشات وجهاز العرائس، ستقابل عن يسارك جامع الفاكهاني، فتذكَّرْ عندما تمر عليه حكاية الخروف المعجزة، والولي الصالح سيدنا الفاكهاني، الذي اخترع الناسُ حكايته وصدَّقوها!

t.me/alanbyaardmsr

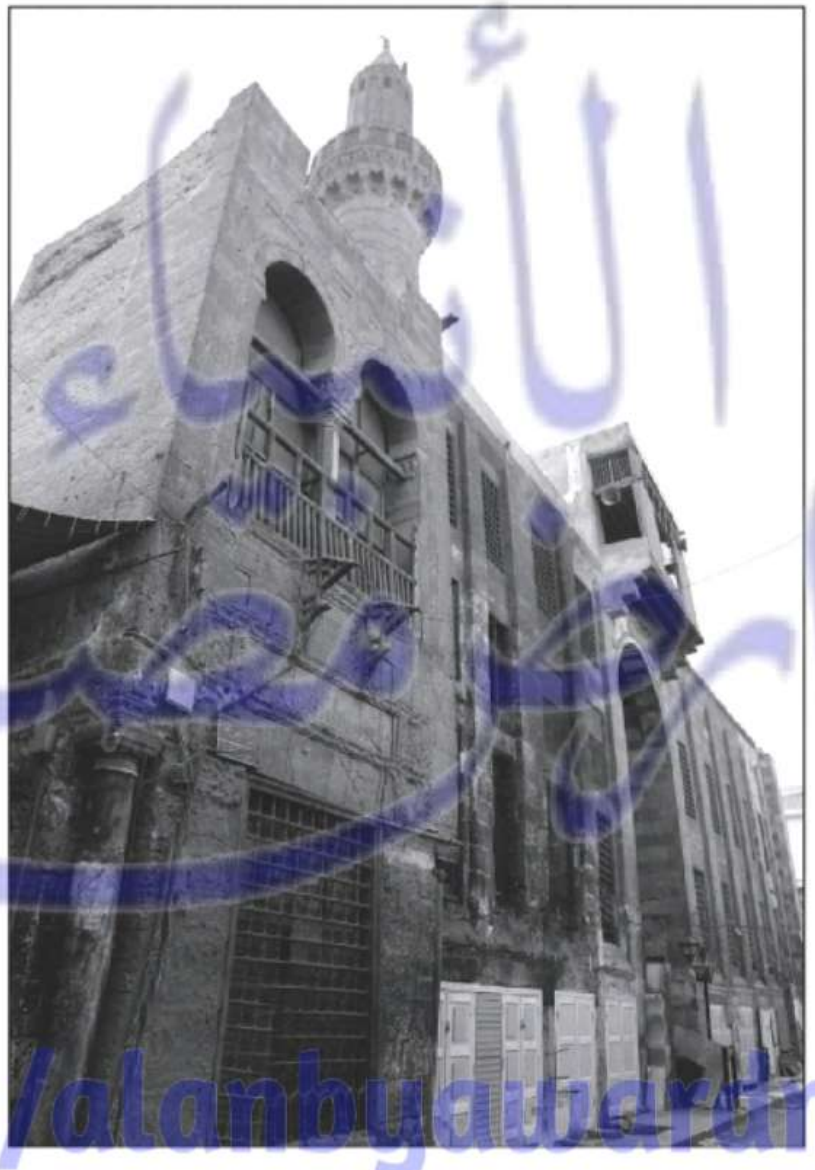

(جامع الفاكهاني)

t.me/alanbyaawardimsr

كرامة «الدينوري» التي تسببت في قتل ابن معصوم!

كرامات أبي الحسن الدينوري أكثر من أن تُعد أو تُحصى..

فقد كان عالمًا عابدًا تقيًّا، وكان كثير المكاشفات، يتكلَّم على الخاطر والباطن، أي أنه ـ على ما تروي كتب كرامات الأولياء ـ كان يعرف ما يُخفي الناس في صدورهم وما يُبطنونه من دون أن يتحدثوا به!

وعلى الرغم من وفاة «الدينوري» المبكرة سنة ٣٣١ للهجرة، أي قبل أن تُبنى القاهرة أصلًا، فإن صيته كواحد من كبار الأولياء ظل حيًّا لقرون طويلة، خاصة أنه يُنسب لـ«الدينوري» كلمة شهيرة تقول: «من لم تظهر كراماته بعد مماته كما كانت في حياته فليس بصادق»!

والغريب أن فقيهًا شافعيًّا مرموقًا مثل موفق الدين ابن عثمان، في

t.me/alanbyaaradmsr

كتابه «مرشد الزوار إلى قبور الأبرار» لم يتحرَّج عن ذكر كرامة عجيبة لأبي الحسن الدينوري، فمن أراد أن ييسِّر الله له حج بيته الحرام، فعليه أن يغتسل ويتعطّر ثُمَّ يزور قبر أبي الحسن في يوم الأربعاء، على وجه التحديد.. وهناك يصلي أربع ركعات ويبتهل إلى الله أن ييسِّر له الحج، بعدها عليه أن ينزع ثيابه ويتمرَّغ على القبر، وسيكتب الله له الحج عن قريب!

أو كرامة أبي الحسن الدينوري مع علي بن السلّار..

حيث تروي كتب الكرامات أن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله قد أرسل رجاله ليقبضوا على ابن السلّار، وكان «الحافظ» قد قَتل في هذه الليلة أربعين رجلًا، استدعاهم وقتلهم بالطريقة ذاتها التي استدعى بها ابن السلّار.

ولما تيقَّن «عليّ» أنه مقتول لا محالة، طلب ممَّن قبضوا عليه أن يصنعوا معه معروفًا، بأن يأخذوه إلى القاهرة مرورًا بالقرافة؛ فقد أراد أن يكون آخر عهده بالدنيا أن يتبرَّك بزيارة أولياء الله الصالحين المدفونين في القرافة، وحين وصل إلى قبر أبي الحسن الدينوري استغاث ابن السلّار به أن يُفرِّج كربه وغمّه.

ولما جيء به أخيرًا إلى قصر الخليفة الفاطمي، إذا بالخليفة يعدِل عن قتله، ويقرر أن يوليه الوزارة، فيصبح علي بن السلّار وزيرًا لمصر!

والحقيقة أن ابن السلّار لم يكُن وزيرًا للحافظ لدين الله قط، بل كان وزيرًا للظافر بأمر الله، والإمامُ لم يستدعِه ليوليه الوزارة كرامةً لـ«الدينوري»، بل إن علي بن السلّار هو من تحرَّك بجيوشه من البحيرة والإسكندرية، وكان واليًا عليهما، إلى القاهرة؛ حيث فرض نفسه وأعلن

t.me/alanbyawardmsr

نفسه وزيرًا لـ«الظافر» رغم أنف «الظافر» نفسه.

ولكن منذ متى تهتم كتب طبقات الأولياء وكراماتهم بالتدقيق التاريخي؟!

فكل ما تهدف إليه تلك الكتب هو تأكيد مكانة أولياء الله والتذكير بمناقبهم وكراماتهم الخارقة. ومع هذا، فيمكن ببعض التدقيق أن نستشف ما وراء حكاية خيالية كتلك، فيمكننا مثلًا أن نفهم أنها ترمي، دون تصريح، إلى الانتصار لمذهب أهل السنة على المذهب الشيعي الإسماعيلي؛ فقد كان أبو الحسن الدينوري صوفيًّا سني المذهب، وكذا كان ابن السلّار، فتصبح فحوى الحكاية أن أهل السنة أصدق شأنًا وأعلى كعبًا من الشيعة. هذا بعد غضِّ الطرف طبعًا عن مدى استحقاق علي بن السلّار لكرامة كهذه، فما تنقله لنا مصادر التاريخ المعتمَدة أن الوزير ابن السلّار لم تكُن أفعاله تخلو من العسف والبطش الجنوني، كالذي فعله بناظر الديوان الموفّق محمد بن معصوم..

ففي شباب ابن السلاّر، وقبل أن يعلو نجمه، ذهب إلى «الموفق» ليطلب منه إقطاعًا، لكن «الموفق» تجاهل أمره احتقارًا له، وعندما ألحَّ عليه ابن السلّار في الطلب قائلًا له: «أما تسمعني؟»، أجابه «الموفق» مستهزئًا به: «كلامك لا يدخل في أذني أصلًا»!

t.me/alanbuawaramsr

وبعد أن دارت الأيام دورتها، وأصبح ابن السلّار الآمر الناهي في مصر، دخل على «الموفق» وذكَّرهُ بكلمته القديمة، فأُسقط في يد الموفق ابن معصوم، وهنا أمر ابن السلّار غلمانه فأمسكوه وشلُّوا حركته تمامًا، ثُمَّ أتوا بمسمارٍ ضخم ودقوه في أذن ابن معصوم حتى خرج من الأخرى!

على أيِّ حال، فربما تكون بركة «الدينوري» قد حفظت ابن السلّار

من القتل وصيَّرته وزيرًا، لكن تلك البركة لم تستمر طويلًا، فكانت نهايته على يد أقرب المقربين منه، «عباس»، ابن زوجته وربيبه، الذي سيقتله ليصبح وزيرًا مكانه..

وسيُنسَى «الدينوري» ويندثر ضريحه وتذوي أصداء كراماته وأعاجيبه، وكذا سيُنسى ابن السلّار ولن يتبقى من سيرته سوى بضعة أسطر في كتب التاريخ عن مدرسته التي أنشأها لنشر مذهب أهل السنة في الإسكندرية، وصراخ الموفق محمد بن معصوم والمسمار يُدق في رأسه من الأذن للأذن، قبل أن يثبتوه بالمسامير على خشبة ويعلقوها على باب زويلة!

t.me/alanbyawardmsr

مسجد علي المُطهَّر..
مكانٌ واحد وحكايتان

الحكاية الأولى

من ذا الذي يقدر أن يتخيَّل أن مسجد علي المُطهر يكتنزُ تلك الحكايات كلها؟!

فنحن عادةً لا نلتفت إلى مسجد صغير ومنزوٍ مثله وسط جوامع شارع المعز الأخرى، خاصةً أن بناءه الحالي ليس بالغ القدم؛ فعمره لا يتعدى ٢٨٠ سنة!

t.me/alanbyawardmsr

أما حكايته الأولى فتسبق ذلك بكثير؛ فمكان هذا المسجد، كان يقعُ بيت نصر بن عباس..

كان «نصر» شابًّا من الذين وُلدوا وفي أفواههم ملاعق من الذهب،

فهو ابن عباس بن تميم، وزير الخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله، والأهم من ذلك أن «نصر» كان صديقًا شخصيًّا لـ«الظافر» نفسه، وكان الخليفة كثيرًا ما يزوره في بيته متخفيًا وهاربًا من المواكب الرسمية والشكليات الفارغة التي ضاق بها ذرعًا شابٌّ مثله. وتوالت هدايا «الظافر» الباذخة التي أغدقها على صديقه المقرَّب، فيومًا يُقدِّم له صينية فضية فيها عشرون ألف دينار، ويومًا يبعث له «الظافر» بصينية أخرى من الذهب وممتلئة باللآلئ والياقوت من كل شكل ولون، حتى إن أرض قليوب كلها قد قدمها الخليفة لصاحبه «نصر» كهدية بسيطة لا تُرد.

والواقع أننا لا نعرف، على وجه التحديد، كيف انتشرت هذه الشائعة ومَن الذي أطلقها، وكل ما نحن متأكدون منه أن القاهرة قد أصبحت ذات يوم وليس لها سيرة سوى العلاقة الدنسة بين الشابين الجميلين، الظافر بأمر الله ونصر بن عباس، وأن أرض قليوب التي أقطعها «الظافر» لـ«نصر» ليست في واقع الأمر سوى مهر نصر بن عباس!

ويشير «المقريزي» إلى أن الوزير عباس بن تميم قد خشي من قرب ابنه من «الظافر»، وأوجس في نفسه خيفةً من أن يقتله ابنه «نصر» ليصبح وزيرًا مكانه، كما فعل «عباس» نفسه مع زوج أمه ابن السلّار من قبلُ. ومن الوارد أن يكون هو نفسه وراء انتشار فرية كتلك، أما المؤكَّد فهو أن الوزير «عباس» قد استدعى ابنه «نصر» وحسَّن إليه قتل الخليفة «الظافر»، فلم يكذِّب «عباس» خبرًا، وأسرع إلى داره ليُجهز لوليمة كبيرة يقيمها على شرف «الظافر»، وبعث إلى الخليفة يدعوه إلى زيارته، وحين وصل «الظافر» متخفيًا كعادته ومعه خادمان لا أكثر، كان «نصر» في استقبالهم هو ورجاله، وفي لحظة واحدة قضوا عليهم، وألقى نصر بن عباس جثثهم في حفرة في داره وغطَّاها بلوح من الرخام!

t.me/alanbyawardmsr

فهو ابن عباس بن تميم، وزير الخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله، والأهم من ذلك أن «نصر» كان صديقًا شخصيًّا لـ«الظافر» نفسه، وكان الخليفة كثيرًا ما يزوره في بيته متخفيًا وهاربًا من المواكب الرسمية والشكليات الفارغة التي ضاق بها ذرعًا شابٌّ مثله. وتوالت هدايا «الظافر» الباذخة التي أغدقها على صديقه المقرَّب، فيومًا يُقدِّم له صينية فضية فيها عشرون ألف دينار، ويومًا يبعث له «الظافر» بصينية أخرى من الذهب وممتلئة باللآلئ والياقوت من كل شكل ولون، حتى إن أرض قليوب كلها قد قدمها الخليفة لصاحبه «نصر» كهدية بسيطة لا تُرد.

والواقع أننا لا نعرف، على وجه التحديد، كيف انتشرت هذه الشائعة ومَن الذي أطلقها، وكل ما نحن متأكدون منه أن القاهرة قد أصبحت ذات يوم وليس لها سيرة سوى العلاقة الدنسة بين الشابين الجميلين، الظافر بأمر الله ونصر بن عباس، وأن أرض قليوب التي أقطعها «الظافر» لـ«نصر» ليست في واقع الأمر سوى مهر نصر بن عباس!

ويشير «المقريزي» إلى أن الوزير عباس بن تميم قد خشي من قرب ابنه من «الظافر»، وأوجس في نفسه خيفةً من أن يقتله ابنه «نصر» ليصبح وزيرًا مكانه، كما فعل «عباس» نفسه مع زوج أمه ابن السلّار من قبلُ. ومن الوارد أن يكون هو نفسه وراء انتشار فرية كتلك، أما المؤكَّد فهو أن الوزير «عباس» قد استدعى ابنه «نصر» وحسَّن إليه قتل الخليفة «الظافر»، فلم يكذِّب «عباس» خبرًا، وأسرع إلى داره ليُجهز لوليمة كبيرة يقيمها على شرف «الظافر»، وبعث إلى الخليفة يدعوه إلى زيارته، وحين وصل «الظافر» متخفيًا كعادته ومعه خادمان لا أكثر، كان «نصر» في استقبالهم هو ورجاله، وفي لحظة واحدة قضوا عليهم، وألقى نصر بن عباس جثثهم في حفرة في داره وغطَّاها بلوح من الرخام!

t.me/alanbyawardmsr

وفي اليوم التالي، ذهب الوزير عباس بن تميم إلى القصر لمقابلة الخليفة، كالعادة، فلم يكُن في القصر مَن يعرف أين ذهب «الظافر» بالأمس ولم يخطر على بال أهل القصر أن الخليفة قد قُتل، ولم يكُن أمام «عباس» سوى أن يكمل المذبحة حتى النهاية، فاستدعى أخوَي الظافر، واتهمهما أنهما تآمرا على أخيهما الخليفة وقتلاه، وأمر بقتلهما فورًا على رؤوس الأشهاد، وأحضر ابن «الظافر»، الذي لم يتجاوز عمره السنوات الخمس، وأعلنه خليفةً وإمامًا!

لكن أمرًا جللًا كقتل الخليفة الفاطمي «الظافر» وأخويه لم يكُن ليمر مرور الكرام، وسينكشف تورُّط نصر بن عباس وأبيه في الاغتيال، ولن يكون أمامهما سوى الفرار من مصر إلى الشام، بعد أن أرسل أخوات «الظافر» رسالة استغاثة لحاكم أسيوط والمنيا طلائع بن رزيك يطالبنه فيها بأن يأتي للانتقام من قتلة «الظافر».

وقرب الشام سيُقتل الوزير عباس بن تميم، أما ابنه «نصر» فسيُقبض عليه ويدخل إلى مصر محبوسًا في قفص حديدي؛ حيث ستتفنَّن جواري القصر وقريبات «الظافر» في تعذيبه، حتى إذا شفين غليلهن منه، فسيقطِّعن لحمه أخيرًا وهو حي ويشوينه، ثُمَّ يطعمنه إياه، وبعد أن يقتلنه سيحرقن جثته ويتركن رماده لتذروه الرياح..

وستكون خطيئة «نصر» وأبيه سببًا في تحقُّق نبوءة طلائع بن رزيك..

وبعد بضع سنوات، سينشئ صلاح الدين الأيوبي على أنقاض دار نصر بن عباس مدرسة لتدريس المذهب الحنفي ضمن المدارس التي أنشأها في مصر لنشر مذهب أهل السنة، وستُعرف هذه المدرسة بـ«السيوفية» لمجاورتها سوق السيوفيين، وعندما سيصيبها الوهن بعد

t.me/alanbyawardmsr

مرور تلك السنين كلها، سيبني الأمير عبد الرحمن كتخدا مكانها مسجدًا سنة ١٧٤٤م، محتفيًا بواحد من أولياء الله الصالحين كان مدفونًا فيه، وغالبًا ما كان هذا الولي ملء السمع والبصر حين قرر «كتخدا» بناء المسجد، أما اليوم فقد انقطعت أخباره وغيَّب النسيانُ مناقبَه وكراماته، بحيث إننا لا نعرف عنه إلا اسمه وحسب: الشيخ علي المُطهَّر!

الأنبياء وأرض مصر
t.me/alanbyawardmsr

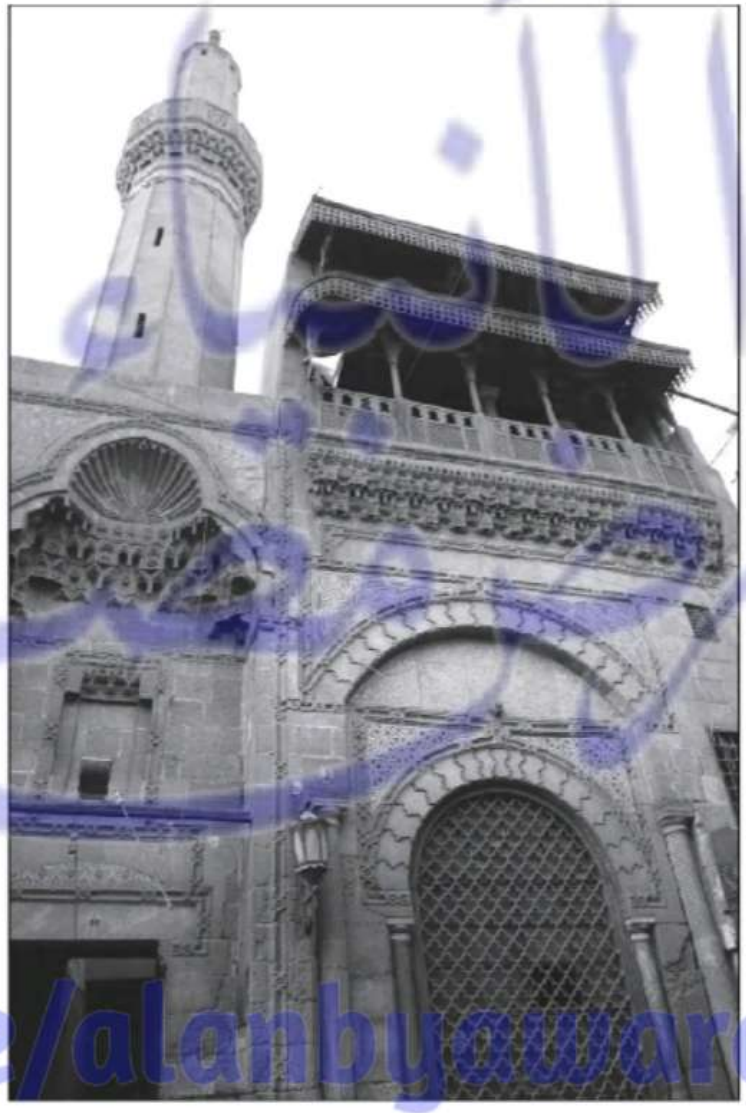

(مسجد وسبيل وكتاب الشيخ المطهّر)

t.me/alanbyawardmsr

كما أنك تستطيع أن تلتقط عددًا غير محدودٍ من الصور لمكان واحد من زوايا مختلفة، بحيث تكون لكل صورة خصوصيتها، كذا يمكنك أن ترى المكان الواحد بتجلِّيات لا حصر لها كلما نظرت إليه من زوايا تاريخية أو اجتماعية مختلفة، فجرِّب مثلًا أن تنظر إلى جامع علي المطهَّر من زاوية قد تبدو غريبة بعض الشيء؛ زاوية السيرة الهلالية، ولترَ كيف سيبدو لك الجامع كما لو أنك لم ترَه من قبل أبدًا..

كانت علاقة الفاطميين بالزيريين قديمة قدم الدعوة الفاطمية ذاتها، وبنو زيري هم أسرة حاكمة مغربية، وكانت أهم ملامح هذه العلاقة عندما انتقل المعز لدين الله الفاطمي من المنصورية، عاصمته القديمة، إلى القاهرة، واستخلف بلكين بن زيري على المغرب، وظل أبناء «بلكين» يحكمون المغرب بالنيابة عن الفاطميين، إلى أن تولى المعز بن باديس، حفيد «بلكين»، حكم المغرب، وقرر أن يخلع طاعة الفاطميين، ويُعلن ولاءه للعباسيين؛ فقد رأى ابن باديس أن انحيازه للعباسيين سيجعل ملكه أكثر استقرارًا، خاصةً أن الأغلبية العظمى من أهل المغرب كانوا من أهل السُّنَّة على مذهب الإمام مالك، وعندما أرسل الخليفة الفاطمي «المستنصر بالله» يهدده ويأمره بالاستمرار على عهد آبائه في الولاء والطاعة للفاطميين، أجابه «المعز»: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك»!

وتمادى المعز بن باديس، وفي أول عيد أضحى، أمر الخطيب أن يلعن الفاطميين على المنبر بهذه الصيغة: «اللهم العن الفسقة الكبار، المارقين الفجار، أعداء الدين وأنصار الشيطان، المخالفين لأمرك والناقضين

t.me/alanbyawardmsr

لعهدك، المُتبعين غير سبيلك، المُبدلين لكتابك، اللهم والعنهم لعنًا وبيلًا، واخزِهم خزيًا عريضًا طويلًا، اللهم وإن سيدنا المعز بن باديس، الناصر لسُنن نبيك والرافع للواء أوليائك، يقول مصدقًا لكتابك وتابعًا لأمرك مدافعًا، لمن غيَّر الدين، وسلك غير سبيل الراشدين: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون»!

اعتبر «المستنصر» تصرف المعز بن باديس طعنة نافذة في ظهر الدولة الفاطمية في أوج صراعها مع العباسيين، فقد كان حُلم الفاطميين الدائم هو الوصول إلى العراق عن طريق الشام والإجهاز نهائيًا على الخلافة العباسية، وهو الحلم الذي لم يتحقق أبدًا؛ لذا، فقد قرر «المستنصر» الانتقام وهدم المعبد على رأس أصحابه، فسمح للقبائل العربية التي قدمت من شبه الجزيرة العربية وأقامت في الصعيد بالهجرة إلى المغرب والاستقرار فيه، لتقويض مُلك ابن باديس، فكانت رسالة «المستنصر» لتلك القبائل بالغة الوضوح: «لقد أعطيتكم المغرب ومُلك المعز بن باديس الصنهاجي، العبد الآبق، فلا تفتقرون»! نجحت حيلة «المستنصر»، واجتاحت القبائل العربية المغرب مغيِّرةً تركيبته الثقافية والاجتماعية إلى الأبد، ولم يستطِع المعز بن باديس الصمود أمامهم، فتراجع مهزومًا إلى مدينة المهدية ليحتمي بها، تاركًا عاصمته القيروان لتنهبها وتدمرها قبائل بني هلال وبني سليم.

t.me/alanbyawardmsr

أما علاقة هذا كله بجامع المطهَّر فجدُّ وثيقة؛ فقد كان «الظافر» حفيدًا لـ«المستنصر»، الذي سمح للقبائل العربية بالتحرُّك إلى المغرب انتقامًا من المعز بن باديس، وكان نصر بن عباس حفيدًا للمُعز بن باديس، دون أن ننسى أن «المُعز» هذا هو من قدمته لنا السيرة الهلالية ـ على أغلب الآراء ـ باسم الزناتي خليفة. وصحيحٌ أن «المُعز» قد مات موتة

طبيعية ولم يُقتل كما روت السيرة الهلالية، إلا أن مقتله في السيرة على يد دياب بن غانم لهو دلالة على خراب ملكه وتدمير القبائل العربية عاصمته القيروان.

ولهذا كله، فيمكنك أن تتساءل وأنت في مسجد علي المطهر الذي حلَّ محل المدرسة السيوفية، ومن قبلها بيت نصر بن عباس: هل كانت شائعة العلاقة إياها بين «الظافر» و«نصر» هي المبرر الوحيد لاغتيال الخليفة كما يذكر المؤرخون، أم أن ضغائن الماضي البعيد والرغبة في الثأر ممَّن دمَّر ملك الآباء والأجداد كانت حاضرة بقوة في ذهن «نصر» وأبيه وهما يقرران قتل الخليفة الظافر بأمر الله؟!

t.me/alanbyawardmsr

الأنبياء وارض مصر

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

نبوءة الصالح طلائع

ستُقابل جامع الصالح طلائع عن يسارك مباشرة فور خروجك من باب زويلة، في موقع شديد الخطورة، ندم على اختياره «طلائع» نفسه بعد ذلك، ببساطة لأن أي مهاجمٍ للقاهرة سيمكنه اعتلاء الجامع واستخدامه في ضرب سورها الجنوبي.

تبدو حياة الصالح طلائع بن رزيك جديرة بالتأمل حقًّا؛ فقد تحكمت فيها نبوءة واحدة منذ البداية وحتى النهاية..

ففي مطلع شبابه وكأي شيعي ملتزم، زار «طلائع» مرقد الإمام علي بالنجف الأشرف، وبات ليلته هناك، وفي اليوم التالي إذا بإمام المرقد ينادي: أين طلائع بن رزيك؟! فقد جاءني الإمام علي في المنام وأمرني أن أبلغ طلائع بن رزيك أن الإمام قد ولّاه حكم مصر!

لم يكذِّب «طلائع» الخبر، فترك العراق إلى مصر؛ حيث صعد السُّلَّم

بصبرٍ درجةً بعد درجة، إلى أن أصبح حاكمًا لـ«منية بني خصيب»، وهو الاسم القديم لـ«المنيا»!

وقد تحقَّق حلمه أخيرًا عندما استُدعي إلى القاهرة بعد اغتيال الخليفة «الظافر»، وفي لحظة واحدة أصبح «طلائع» وزيرَ مصرَ وحاكمَها الحقيقي، ففي خريف الدولة الفاطمية كانت السلطة الفعلية بأيدي الوزراء، ولعل «الصالح» قد عمل في تلك الفترة تحديدًا على نشر تلك النبوءة وإذاعتها في كل مكان للتأكيد أن حكمه جاء باختيار إلهيٍّ، ليس هذا فحسب، بل إنه قام بمناورة مدهشة أخرى، فقد وصل الصليبيون إلى عسقلان، ورأس «الحسين»، عليه السلام، أصبح في خطر، فمن الوارد أن ينبش الصليبيون المشهد الذي دُفن فيه الرأس الشريف نكايةً في أحفاده الفاطميين!

صحيحٌ أننا لا نعرف بدايةً ما الذي أتى برأس «الحسين» من كربلاء، حيث استشهد، إلى عسقلان، خاصةً أن أول ذكر لهذا المشهد في المصادر التاريخية التي بين أيدينا كان عندما بناه الأفضل شاهنشاه ابن بدر الدين الجمالي، قبل سنوات قليلة تسبق أيام الصالح طلائع، بالإضافة إلى أن دخول الصليبيين إلى عسقلان كان في وقت سابق على وصول «طلائع» إلى الوزارة أصلًا!

وعلى أي حال، فما حدث أنَّ استعادة رأس «الحسين» من أيدي أعداء الله قد أصبحت حديثَ الناس، وانشغل الجميع بمتابعة المفاوضات مع الصليبيين، ومقدار الفدية التي ستُدفع لهم ليسمحوا بعودة الرأس، ثُمَّ الاحتفالات الشعبية العارمة بعودة الرأس أخيرًا..

ومن المؤكَّد لنا اليومَ أن الصالح طلائع قد أنشأ جامعَهُ لكي يُدفن

فيه رأس «الحسين»، وهو ما رفضه الخليفة الفاطمي، أو على الأغلب كبار أمراء البيت الفاطمي؛ لأن الخليفة كان طفلًا لا يعي شيئًا حينها، وأصرُّوا أن يُدفن الرأس في القصر الشرقي الكبير.

وثَمَّةُ روايات رائجة، بلا سند تاريخي مقبول، تذكر أن الصالح قد اتفق مع الخليفة أن يتم غسل الرأس الشريف في جامعه، ثُمَّ يُدفن في القصر، في الموضع ذاته الذي يشغله حاليًّا جامع الحسين، ومن هذه الحكاية تفرعت حكاية أخرى عن الخشبة التي غُسل رأس «الحسين» عليها، والتي بالغ الصالح طلائع في تكريمها حتى إنه علّقها في صدر الرواق الذي يقابل الداخل من الباب مباشرة، وما زاد من رواج هذه الحكايات الأسطورية أن ثمة خشبة مُعلّقة إلى اليوم في ذلك المكان بالفعل، وتكون أول ما يقابل الزائرَ فورَ أن يدلفَ من بابِ الجامع.

وبدا أن الصالح طلائع قد حققَ كلَّ ما يصبو إليه؛ فقد وهبه الإمام علي بن أبي طالب نبوءة ناجزة بحكم مصر، وتمكَّن من استرداد رأس ابنه سيد الشهداء، فمن ذا الذي يجرؤ، والحال كذلك، على مساءلة الصالح طلائع عن أفعاله؟

فليفعل الصالح إذًا ما بدا له، يبيع المناصب ويجمع الأموال ويسرق وينهب ويحتكر البضائع والغلال، ويسجن ويقتل كيف شاء، فهو مؤيَّد من السماء في كل ما يفعله. وعلى الرغم من هذا فإن الصالح طلائع بن رزيك قد قُتل بمؤامرة بسيطة في القصر الشرقي الكبير، دون أن تنفعه نبوءة «علي» أو رأس «الحسين»!

(جامع الصالح طلائع)

تأملات في قبة
الصالح نجم الدين أيوب

ثَمَّة حكايات تاريخية تتحوَّل، بفعل الإعادة والتكرار، إلى مُسلَّمات لا يجوز معها أن نعيد قراءتها أو نتفكَّر في مدى صحتها ودلالاتها، بالضبط كحكاية الملك المعظَّم توران شاه..

توران شاه هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي أرسلت إليه شجر الدر، أرملة أبيه، كي يحكم مصر بعد وفاة «الصالح» في لحظات حرجة في أثناء الحملة الصليبية السابعة.

تذكر الروايات أن توران شاه عندما وصل إلى مصر أساء معاملة شجر الدر ومماليك أبيه الكبار الذين كان يعتمد عليهم في إدارة دولته الشاسعة. هذا كله يُعطينا انطباعًا قويًّا بأن توران شاه كان الابن الفاسد الذي أبعده أبوه الملك الصالح إلى حصن كَيْفَا في تركيا، والذي كان

يرى أنه لا يصلح لأمور السياسة والحكم، بالإضافة طبعًا إلى التلميح المتكرر إلى الميول الشاذة لتوران شاه وأنه كان سِكِّيرًا و«بيدوفيلي» الهوى، يميل جنسيًّا للأطفال!

لكن الغريب أن الملك المُعظَّم لم يكُن همجيًّا أو سفاحًا كما اشتُهر عنه، بل كان شاعرًا وقارئًا نهمًا، ومُحبًّا لمُجالسة الأدباء والفقهاء، أي أنه كان مثقفًا بمقاييس عصره!

وربما كان ذلك هو المبرر الحقيقي وراء استدعاء شجر الدر ومماليك زوجها الراحل لتوران شاه؛ لأنهم ظنوا أنه سيُصبح واجهة أيوبية برَّاقة تعطيهم شرعية الحكم، ويتفرَّغ هو للأدب والشعر ومجالس العلم كما يحلو له، تاركًا أمور الحكم والسياسة ليديرها المماليك بطريقتهم، وهو النموذج ذاته الذي سيُطبقه الظاهر بيبرس بعد ذلك عندما أعاد إحياء الخلافة العباسية صوريًّا في القاهرة.

ولكن ما حدث أن المماليك قد فوجئوا بأن توران شاه يريد أن يحكم بنفسه، مستعينًا بمساعديه الذين اصطحبهم معه من حصن كيْفا، وأخذ في ترقيتهم وتقليص أدوار مماليك أبيه.

لاحِظ أن الصالح نجم الدين أيوب كان حاكمًا قويًّا بحق، بل لعله أهم حاكم في الأسرة الأيوبية على الإطلاق بعد الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكان يعرف جيدًا كيف يسوس مماليكه ويُحجِّمهم، والمرَّة الأولى التي شعر فيها المماليك بقوتهم كانت في الشهور القليلة التي أعقبت وفاة الملك الصالح، وبدا أن ماردًا جبَّارًا قد تحرر من قمقمه أخيرًا؛ لهذا لم يعبؤوا بشرعية الأيوبيين ولا بذكرى الرجل الذي اشتراهم وربَّاهم ورقَّاهم وجعل منهم أمراءَ بعدما كانوا غلمانًا يُدلِّلُ عليهم النخَّاسون

في الأسواق، ولم يكُن عندهم أي استعدادٍ لأن يرجعوا مرَّة أخرى مجرد مقاتلين بعدما تنعَّموا بالحكم وذاقوا حلاوة السُّلطة، فقرروا أن يتخلصوا من الملك المعظَّم توران شاه!

يمكننا أن نتخيَّل، من الطريقة التي قُتل بها توران شاه، حالة الفوران التي كان عليها المماليك؛ فقد كان من الممكن أن يعتقلوه ببساطة ثُمَّ يقتلوه، ولكنهم بدلًا من ذلك هجموا عليه بسيوفهم وهو يأكل، فهرب منهم وهو جريح ليحتمي ببرج خشبي، فأخذوا يرمونه بالسهام ثُمَّ أشعلوا النار في البرج بأكمله، وحتى بعد أن استطاع الهرب من الحريق آخذًا في الركض نحو النيل، فقد تتبعوه ولم يتوقفوا إلا بعد أن قطَّعوه إربًا وسط النهر، وتركوا أشلاءه على الشاطئ حتى تعفنت، أي أنهم قد قتلوه بكل الطرق المتاحة أيامهم: رموه بالسهام وأحرقوه وأغرقوه وذبحوه!

ولطالما اعتُبرت تلك اللحظة تحديدًا هي البداية الحقيقية لدولة المماليك؛ فقد كان فوران المماليك بلا مثيل حينها، كشلالٍ هادرٍ بدأ لحظتها ولم ينتهِ إلا حين شُنق طومان باي على باب زويلة بعد نحو ٢٧٥ سنة من تلك اللحظة.

وبعد قتل توران شاه، ظنَّ المماليك أنهم قد أصبحوا يدًا واحدة ضد كل من يعترض طريقهم، سواء أكان بقايا الأيوبيين أم الخليفة العباسي ذاته أم أي مخلوق آخر يُفكر في انتزاع السلطة منهم، ولكن ما حدث أن أول من أصابته لعنة الدم هم المماليك أنفسهم، من «أيبك» لـ«شجر الدر» لـ«قطز»، والحاكم الذي لم يُقتل منهم بالفعل مات ألف مرّة وهو ينتظر القتل في أي لحظة!

(ضريح الصالح نجم الدين أيوب)

الرُّكن المخلَّق

الوصفة واضحة جدًّا ولا تحتاج إلى الاستعانة بمرشد سياحي أو بخرائط «جوجل»، فكل ما عليك أن تدخل من باب الفتوح وتتسكع قليلًا في شارع المعز حتى تصل إلى جامع الأقمر، فتمهل حينها ولا تكمل المسير، وادلف إلى حارة رحبة العيد التي تلي جامع الأقمر مباشرة، وستجد نفسك بعد بضع خطوات في شارع التمبكشية، فإذا نظرت إلى يسارك ستجد ميضأة جامع الأقمر، وأمام الميضأة مباشرة سترى تلك الخرابة التي صارت مخزنًا، فتمهل واحبس أنفاسك؛ فمن هنا بدأ بناء القاهرة!

أما الحكاية، فقد بدأت منذ أن دخل جوهر الصقلبي إلى مصر، وقرَّر ألا يهدر الوقت؛ فبدأ منذ الليلة الأولى لوصوله في حفر أساس القصر الشرقي الكبير الذي سيسكنه المعز لدين الله الفاطمي، في أثناء الحفر

قابله دير قبطي اسمه دير العظام، وكان الشائع حينها أن هذا الدير دُفن فيه رفات عدد من الحواريين من تلاميذ السيد المسيح، ونفهم من كلام «المقريزي» أن «جوهر» قد تحرَّج من أن يكون هناك ديرٌ داخل قصر الأئمة الفاطميين أو أن يكون ملاصقًا له، فقرر «جوهر» أن يهدم الدير، ويعيد دفن الرفات في مكان آخر بعيد بناه خصيصًا، ذلك المكان الذي سيصبح بعد ذلك الكاتدرائية المرقسية بالعباسية!

أما المخزن الذي تقفُ أمامه الآن، فهو ما تبقَّى من دير العظام الذي هدمه «جوهر»، وهنا تحديدًا كان يوجد أحد أركان القصر الشرقي الكبير، الركن الذي يتلاقى فيه الجدار الشمالي للقصر مع الجدار الغربي، وفي هذا الركن بنى جوهر الصقلبي مسجدًا صغيرًا مكان الدير!

وولّت أيام الفاطميين وتبعهم الأيوبيون، حتى وصل الظاهر بيبرس إلى حكم مصر في ظروف بالغة التعقيد؛ فمن ناحيةٍ كان يبحث عن شرعية راسخة لحكمه بخلاف الحروب المتواصلة التي شنَّها على التتار والصليبيين، وقد وجد هذه الشرعية في إحياء الخلافة العباسية من جديد في القاهرة، وفي التمسُّك بمظاهر الشريعة الإسلامية، كمنع بيع الخمور وشربها وتدخين الحشيش وإغلاق بيوت البغاء، إضافة إلى بعض التصرفات المعادية لليهود والمسيحيين، التي غالبًا ما داعبت غرائزَ الجماهير وحميَّتهم الدينية المتأججة بمنطق العصور الوسطى، وهو ما ظهر بعد ذلك في أكثر من حادثة، منها أنه حين تكرر اشتعال الحرائق في حي الباطلية، وأشارت أصابع الاتهام إلى أن المسيحيين يقفون وراء تلك الحوادث، قرر «بيبرس» أن يجمع أغلب مسيحيي القاهرة ويهودها في القلعة ويحرقهم بالنار جميعًا، بل إنه أمر، على ما يروي «المقريزي»، في السلوك بجمع الأعشاب الجافة والحطب لكي يشعل النار فعلًا، إلى أن

شفع فيهم أتابك الجيش بشرط أن يقوموا بدفع أثمان ما أكلته النيران كتعويض عن الخسائر، وأن يدفعوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار!

فبسبب الحروب الصليبية، كان المسيحيون متهمين، باستمرار، بأنهم يتآمرون مع الصليبيين، حتى إن «المقريزي» في خططه قد اعتبر ببساطة عجيبة أن حرائق الباطلية قد أشعلها المسيحيون كرد فعلٍ على انتصار السلطان بيبرس على الصليبيين واسترداد طرابلس ويافا وأنطاكية من أيديهم!

فهل توجَّس المسيحيون واليهود من عنفوان «بيبرس» البالغ منذ قتله «قطز» ووصوله إلى الحكم، وأخذ اليهود زمام المبادرة بتنفيذ حيلة صغيرة قد تقيهم من شطحاته فيما بعد؟

ربما!

فكل ما نقلته لنا المصادر أنه ذات يوم من أيام سنة ٦٦٠هـ، دخل الناس إلى المسجد الذي أقامه «جوهر» في ركن القصر كعادتهم، وإذا بهم يجدون حجرًا عليه آثار القِدم، ومكتوب عليه: «هذا معبد موسى بن عمران»، فيتحوَّل اسم المسجد إلى «مسجد معبد موسى»، أما الحجر المُعجز الذي ظهر على حين غِرَّة، فقد عَظَّمه الناس واعتادوا أن يُخَلقوه (أي يُعطروه) بالزعفران، ومن حينها عُرف هذا المكان باسم الرُّكن المُخلَّق!

في القاهرة، كُن على ثقة بأنه مهما بلغت خبرتك بدروبها، فستظل على موعد دائم مع الدهشة، دهشة من أعاجيب البدايات وعبث المآلات!

(موضع الركن المخلّق)

قيسارية البطل الأشقر!

الأماكن حظها أفضل من بني آدم..

ليس فقط لأن عمرها أطول وتمر عليها أيام وسنون بلا عدد، ولكن لأن الأماكن تكتنز قدرة عجيبة على تحويل التاريخ إلى واقع نشعر به ونقدر على لمسه بأيدينا.

وإلَّا، قُل لي بربك كيف نستطيع أن نتذكَّر الأمير سنقر الأشقر دون أن نتلمس بقايا حكايته في الأماكن؟!

* * *

عندما دمَّر التتار بغداد، ودخلوا بعدها الشام، أخرج «هولاكو» جميع المعتقلين في سجون الشام وأخذهم أسرى، أحد هؤلاء المعتقلين كان سنقر الأشقر، الصديق المقرَّب للظاهر بيبرس.

مرّت السنوات بطيئة و«سنقر» قابع في أسر التتار، سنون تغيرت فيها الأحوال وتبدلت مصائر العباد، وصل فيها «بيبرس» إلى حكم مصر، وقرر أن يجد صديقه القديم ويستعيده من أسر التتار بأي طريقة.. ولكن كيف؟

جاء الحل بطريقة معقَّدة بعض الشيء، كان «بيبرس» يحارب وقتها في أرمينيا الصغرى، أو بلاد «سيس»، كما كان يُطلَق عليها حينها، واستطاع أن يأسر ابن ملك «سيس»، فكانت هذه بداية الطريق لتحرير سنقر الأشقر، فلقد كانت مملكة «سيس»، حينها، متحالفةً مع التتار، وعندما عرض الملك على «بيبرس» أن يفتدي ابنه بأي مقابل يطلبه، كانت الفدية التي طلبها بيبرس هي استعادة سنقر الأشقر من أيدي التتار!

ومع أن طلب «بيبرس» كان يبدو حينها كالبحث عن إبرة وسط كومة من القش، فإن ملك «سيس» استماتَ في البحث عن «سنقر» عند حلفائه التتار، حتى عثر عليه أخيرًا وسلمه لـ«بيبرس».

لن نستطيع استيعاب الفائدة من وراء المجهود الجبار الذي بذله الظاهر بيبرس لإنقاذ سنقر الأشقر من يد التتار إلا بعد سنوات كثيرة، عندما يموت «بيبرس» ويتولى الحكم ابنه الطفل بدر الدين سلامش، سيعزل قلاوون الألفي السلطان الطفل، ويعلن نفسه سلطانًا على مصر.

هنا سيظهر وفاء سنقر الأشقر لصديقه «بيبرس» ومعدنه الأصيل، فيرفض خلع «سلامش» ويمتنع عن مبايعة «قلاوون»، وأكثر من ذلك أن «سنقر» أعلن استقلاله بحكم دمشق!

جهَّز المنصور قلاوون جيشًا ضخمًا من مصر لكي يؤدِّب «الأشقر» ويستعيد دمشق، في تلك الأثناء كان التتار يراقبون الموقف جيدًا، ورأوا

أنها فرصة ذهبية لضرب المماليك وهم منقسمون، فقرروا الهجوم على الشام.

كان بإمكان سنقر الأشقر أن يتحالف مع التتار ضد «قلاوون» والعسكر المصري، وساعتها كان سيضمن حكم الشام، بل وحكم مصر أيضًا تحت راية التتار، أما ما حدث فكان غاية في المثالية كنهايات الأفلام العربية القديمة، انضمت قوات سنقر الأشقر إلى قوات المنصور قلاوون وحاربوا التتار معًا جنبًا إلى جنب حتى هزموهم!

واعترف بعدها سنقر الأشقر بحكم «قلاوون» وعاش معززًا مكرمًا طول الإحدى عشرة سنة التي حكم فيها المنصور قلاوون مصر والشام.

فإذا ما سِرتَ في الغورية ميمِّمًا شطر باب زويلة، وحين يصبح عن يمينك جامع المؤيد شيخ، تذكر فور أن تدلف من باب جامع المؤيد أن هنا تحديدًا كانت القيسارية (السوق) التي بناها الأمير الكبير شمس الدين سنقر الأشقر، أحد شرفاء التاريخ الذين لم يعُد يذكرهم أحد.

الهارب إلى التتار!

عندما يحكي المؤرِّخون عن فِعلة قبجق المنصوري، فإنهم عادةً ما يبدؤون القصة هكذا:

كان السلطان المنصور قلاوون يتريَّض ذات يوم مع مماليكه، ويبدو أنه قد اشتهى لحم الضأن، فجاء بكبش وذبحه ثُمَّ شواه، أخذ «قلاوون» كتف الخروف اليمنى لنفسه، وترك الباقي لمماليكه.

وبعد أن أكل السلطان اللحم، أخذ يتفرَّس مليًّا في عظم الكتف، فقد كان «قلاوون» ماهرًا في قراءة الكتف، وهي ضربٌ من ضروب قراءة الطالع كانت مشهورة أيام المماليك.

فجأة تجَهَّم «قلاوون» ورمى عظمة الكتف في الأرض وبصقَ عليها، وعندما سأله مماليكه عمَّا رآه في الكتف لم يزِد على كلمة واحدة: «قبجق»!

كان «قبجق» أحد مماليك المنصور قلاوون؛ لذا عُرف بـ«المنصوري»،

وكان مثالًا للمملوك النموذجي: فارس مغوار ومقاتلٌ لا مثيل له، وفوق ذلك اشتُهر بعقله الراجح، ولم يستطِع أحدٌ أن يُمسك عليه غلطة واحدة حتى بعد أن وضعه أستاذه المنصور قلاوون تحت المنظار باستمرار منذ نبوءة الكتف التي رآها.

وكان لـ«قبجق» خشداش ـ أي زميل ـ هو مملوك منصوري آخر اسمه حسام الدين لاجين، كانت صداقتهما مضربًا للأمثال، وبين عشية وضحاها، استطاع حسام الدين لاجين أن يصل إلى حكم مصر!

وكان طبيعيًّا والحال كذلك أن يعتمد «لاجين» على من يثق بهم من أصحابه المقربين، ولهذا ولَّى قبجق المنصوري واحدًا من أهم المناصب السياسية في دولة سلاطين المماليك، وهو نيابة الشام، أي أن يُصبح حاكمًا للشام بأكمله، ولوهلة بدا أن «لاجين» سيحكم دولة المماليك بلا منغصات لسنين طويلة، وقد أحاط به رجاله وخشداشيته، ولكن ما حدث غير ذلك؛ فقد تبدَّلت طباع «لاجين» تمامًا بعد أن تسلطن، فأصبح يتوجَّس من المحيطين به، ويرى في جدلهم أو معارضتهم له نيَّة مبيَّتة للغدر به.

فأخذ السلطان «لاجين» يضيِّق الخناق على أمراء المماليك؛ يقلل إقطاعات (مرتبات) البعض، ويعتقل آخرين ويُصادر ممتلكاتهم، ويتخلَّص ممَّن يستطيع التخلُّص منهم، حتى إنه قد حاول قتل صاحبَ عمرهِ قبجق المنصوري عندما ظنَّ أنه قد يستقل بحكم الشام!

هنا، شعر «قبجق» أن نهايته قادمةٌ لا محالة، فقرر أن يفرَّ بجلده، فترك «الجمل بما حمل» في الشام، واصطحب عددًا من أمراء المماليك الذين خشوا على أنفسهم من غدر «لاجين» أيضًا، ويمَّموا وجوههم جميعًا شطر التتار!

ففي ذلك الوقت، كان تتار فارس هم المنافس الرئيسي في المنطقة لدولة سلاطين المماليك، وكان حاكمهم، حفيد هولاكو وجنكيز خان، قد أعلن إسلامه وسمَّى نفسه «محمود غازان»!

أحسن السلطان «غازان» استقبال «قبجق» باعتباره كان نائبًا للشام، وأكرمه وجعله من مستشاريه المقربين، وظلَّ الحال كذلك إلى أن وُضعت العقدة في المنشار حين أعلن «غازان» أنه سيتحرَّك بجيوشه لاحتلال الشام!

لم يكُن أمام قبجق المنصوري فرصة للتراجع أو الهرب، فحارب مع التتار ضد المماليك، تلك الحرب التي انتصر فيها التتار واحتلوا الشام على أثرها.. وللمرّة الثانية يتولَّى «قبجق» حكم الشام، نائبًا عن التتار هذه المرّة!

لم يكُن «قبجق» خائنًا بالفطرة أو يسعى وراء المناصب، كان يريد أن ينجو بحياته من موت محقق لا أكثر؛ ولهذا فعندما قُتل صاحبه القديم السلطان «لاجين»، وتغيَّرت الظروف السياسية في مصر، وتولَّى الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر من جديد، قرر قبجق المنصوري أن يرجع إلى مصر هو الآخر، على الرغم من أنه كان يقيم معززًا مكرمًا وسط التتار.

والغريب أن أحدًا لم يلُم قبجق المنصوري أو يتهمه بالخيانة، لا المماليك ولا المؤرخون الذين عاصروه، والأغرب أن «قبجق» ذاته قد قاتل التتار بعد ذلك بضراوة أهَّلته لأن يصبح حاكمًا لحلب بعد ذلك إلى أن مات.

فقد كان مفهومًا، حينها، أن الظلم والاستبداد يورثان اليأس أو الجنون!

فإذا مررت يومًا على جامع أحمد بن طولون، فلا تنسَ أن حسام الدين لاجين هو من رمّمه بعدما ظل خربًا ومغلقًا مئات السنين، معتقدًا أنه حين يعيد افتتاح أكبر الجوامع المصرية، فإن ذلك سيبرر ظلمه للعباد واضطهاده لمعارضيه، على الرغم من أن ظلمه هو الذي تسبَّب في أن كبار أمراء مصر قد فرُّوا بحياتهم وارتموا في أحضان التتار على أمل النجاة من الموت.

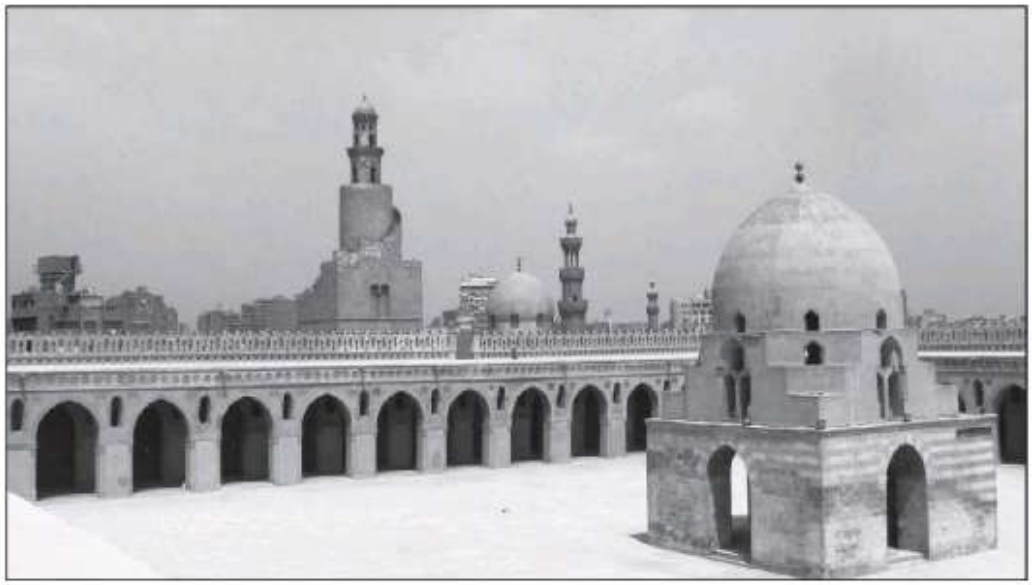

(جامع أحمد بن طولون)

كابوس العصور الوسطى في جامع الحاكم!

كثيرًا ما نقع، بوعي أو من دون وعي، في هذا الخطأ السخيف: أن نحبس كل أثر في العصر الذي تم بناؤه فيه، كأن نعتقد مثلًا أن الأثر المملوكي ليس له أي ارتباط إلا بعصر سلاطين المماليك، كما لو أنه تم تجميده من وقتها إلى أن وصل إلينا، يشبه ذلك أن نتأمَّل في صورنا الشخصية ونحن أطفال ونعتقد أنها تعبِّر عنَّا اليوم، فالأماكن كما البشر تمامًا، كلّ يوم يمُر عليها ينقلها من حال إلى حال!

خذ عندك جامع الحاكم بأمر الله مثلًا..

ليس من العدل أبدًا أن نتعامل مع مكان يزيد عمره على ألف سنة بمجموعة من الحكايات المعادة إياها عن شخص الحاكم بأمر الله، وصلاح الدين الأيوبي الذي أغلق الأزهر ونقل صلاة الجمعة إلى جامع

الحاكم، أو كيف أنه قد تحوَّل إلى مخزنٍ للآثار ومصنع ومدرسة، وأخيرًا كيف جددته طائفة البهرة ـ وهم بالمناسبة أتباع الإسماعيلية المستعلية، أي الذين يرون أن الإمامة حقٌّ للمستعلي بالله ابن المستنصر، وليس لأخيه الأكبر «نزار» ـ وكيف مَسَخت هذه التجديدات جامع الحاكم بهذا الشكل!

لقد كان جامع الحاكم بأمر الله أكبر جامع ضمته أسوار القاهرة، وهو ما جعله مناسبًا جدًّا لهذه الحكاية:

في سنة ١٣٤٧م، وصل الطاعون إلى القاهرة، وبدا أن أسوأ كوابيس العصور الوسطى قد بدأ يتحقق، غادر السلطان «حسن» القاهرة، واعتكف في سرياقوس بالقليوبية بعيدًا عن الوباء.

كان الوباء عالميًّا، امتد من الصين حتى أوروبا وغيَّر وجه العالم القديم بأكمله، وقتل ملايين ليس لها أول ولا آخر. في القاهرة وحدها كان يموت الآلاف كل يوم، أسرٌ كاملة تموت بالتتابع في أيام قليلة، شوارع وحارات تُمسي خاوية على عروشها تمامًا بعد أن مات سكانها جميعًا، وكان يُحمل كل جثمانين أو ثلاثة على نعش واحد، وإذا تعذَّر إيجاد نعش، كانوا يُشيعون الراحلين محمولين على سُلَّم أو باب خشبي قديم، قبل أن يدفنوهم في مقابر جماعية. أما خارج القاهرة، فلم تجد آلاف الأفدنة مَن يحصدها، وثمة قرى قضى الوباء على كل سكانها ولم يتبقَّ من يدفنهم حتى أكلت الكلاب جِيَفَهم!

أصبح الحال عجيبًا في برِّ مصر، رخصت السلع وتوافرت، وترك الناس أعمالهم واستسلموا لمصيرهم المحتوم. ومع ذلك، حاول البعض استثمار الطاعون، فغيروا وظائفهم إلى أكثر الوظائف الرائجة حينها،

فعملوا كحانوتية وحفاري قبور وقرَّاء للقرآن، وحققوا ثروات مهولة في وقت قياسي، وإن لم يستطيعوا الاستمتاع بها طويلًا؛ فقد مات أكثرهم بالطاعون أيضًا!

وأصبح الناس يتشبثون بأي أمل أو أسطورة تُنجيهم من الطاعون، ادعى أحد الأشخاص في حلب أنه رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام، وأبلغه الرسول الكريم أن يدعو الناس بهذا الدعاء لكي ينتهي الوباء: «اللهم سكِّن هيبة صدمة قهرمان الجبروت بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت»، وبالطبع لم تُجدِ تلك التعويذة نفعًا مع الطاعون.

واليوم، عندما تقف أمام جامع الحاكم بأمر الله، حاوِل أن تتجاهل روحانياته الزائفة وجلسات التصوير التي يمتلئ بها، وتذكَّرْ فقط وأنت تقف على عتبة الدخول أنَّ في مثل هذا المكان منذ ما يزيد قليلًا على ٦٥٠ سنة، كان يقف إمام جامع الحاكم ليصلي صلاة الجنازة على ضحايا الطاعون، وأمامه كانت توابيت الموتى تمتد أزواجًا على مرمى البصر من أول الباب وحتى المحراب!

(مدخل جامع الحاكم بأمر الله)

حكاية كل هرماس!

لا ريب أنك قد سمعت عن «الهرماس» من قبلُ، وحتى إذا ظننت أنك لم تسمع بهذا الاسم أبدًا، فلا تتسرع وتقطع بأنك لا تعرف حكايته قبل أن أُذكِّرك بتفاصيلها؛ فحكاية مولانا قطب الدين محمد بن الهرماس شهيرة ومتكررة بقدر غرابتها..

فـ«الهرماس» كان إمامًا لجامع الحاكم بأمر الله، من ذلك النوع الذي يجلجل المنبر بصوته الجهوري ويعصر عينيه عصرًا لتدمعا من التأثُّر وخشية الله! وكان يعرف جيدًا في قرارة نفسه أنه بلا قيمة حقيقية وسط مجتمع الفقهاء، ولهذا فكّر «الهرماس» في طريقة أخرى لينال بها الحظوة والقبول: أن يصبح درويشًا واصلًا؛ فالقاهرة دومًا ما تفتح ذراعيها للدراويش على اختلاف مشاربهم، والمصريون على مرِّ الزمان مولعون بصيغة الفقيه المتصوف، العالم بالشريعة والحقيقة معًا!

ولكن.. كيف سيتدروش «الهرماس»؟!

كان الحل بسيطًا؛ فقد اعتاد الشيخ أن يسعى وراء المجاذيب والدراويش الحقيقيين السارحين في ملكوت الله، ويحاول أن يلتقط بعضًا من كلامهم وينسبه لنفسه!

فعندما كان «الهرماس» في مكة، في موسم الحج، صاحبَ مجذوبًا اسمه «أبو طرطور».. وفي لحظة تجلٍّ، قال «أبو طرطور» بلا مقدمات:

ـ عُزِلَ اليوم السلطان الصالح، وأعيد السلطان «حسن» للحكم!

لمعت عينا «الهرماس»، وبدا أن فرصته التي طالما انتظرها قد وافته أخيرًا، فغادر «أبا طرطور» إلى مجلس الأمير عز الدين أزدمر، الذي كان يحج أيضًا، وبعد أن سلَّم عليه، وجاذبه أطراف الحديث، إذا بـ«الهرماس» يصمت فجأة ويُطرق برأسه كأنما يتلقَّى وحيًا من السماء، بعدها رفع رأسه وقال بثقة للأمير إن السلطان قد عُزل وإن الناصر حسن قد أُعيد للحكم حالًا!

وعندما سأله الحضور متعجبين عن مصدر معلومة كهذه، ابتسم «الهرماس» في غموض ولم يُجِب!

وبسرعة، طار الخبر إلى مصر، وصار مولانا «الهرماس» صاحب السر «الباتع» هو حديث الساعة، حتى إن السلطان «حسن» قد استدعاه وأجلسه إلى جواره باعتبار أنه قد بشّر برجوعه إلى الحكم فعلًا.

ولأن «الهرماس» وحده هو من يعرف حقيقة نفسه، وأن كل ما يرفل فيه من نعيم وحظوة ومكانة لدى السلطان مبني على كذبة كبيرة، فقد حَرصَ على أن يُبعد المشايخ عن السلطان «حسن»، فتفنَّن في الإيقاع

بهم واتهامهم بالباطل ليظل هو وحده شيخ السلطان.

نفعت ألاعيب «الهرماس» إلى حين، حتى إنه قد سافر للحج ثانية وهو مطمئنٌّ على نفوذه ومكانته عند السلطان «حسن»، وعندما رجع من الحج، طلع إلى القلعة ليسلِّم على السلطان، فمُنع من الدخول عليه!

أما ما حدث فهو أن الشيوخ قد استغلوا غياب «الهرماس»، وأخبروا السلطان بحقيقته من البداية إلى النهاية. بعدها نزل السلطان «حسن» في موكب ضخم من القلعة، كان الكل يسير على قدميه عدا السلطان «حسن» والشيخ شمس الدين محمد بن النقاش، هما فقط من كانا يمتطيان صهوة جواديهما وسط الموكب كله، فقد كان «ابن النقاش» واحدًا من المشايخ المقربين للسلطان «حسن»، وأحد من أضيروا بسبب وشايات «الهرماس»..

بعدما زار السلطان «حسن» قبر أبيه وجده المنصور قلاوون في شارع المعز وأهداهما الفاتحة، تحرَّك الموكب بعدها حثيثًا حتى وصل إلى بيت «الهرماس»..

وهنا استدعى السلطان «حسن» «الهرماس»، وأمر أن يُجرَّد من ملابسه ويُجلَد على رؤوس الأشهاد، وأمر أيضًا أن يتم هدم بيته أمام ناظرَيه في أثناء جَلْدِه!

فإذا مررت بعد ذلك على جامع الحاكم بأمر الله، فتذكَّر «الهرماس» الذي كان إمامًا له، وتذكَّرْ بيته الذي كان ملاصقًا للجامع، ذلك البيت الذي تهدَّم أمام عينيه عندما أراد أن يجعل من نفسه وليًّا من أولياء الله الصالحين!

زاوية الموسيقار الحنبلي!

لم أعد أستغرب مثل هذه البدايات..

أن أكون مستغرقًا في مراجعة معلومةٍ ما عن عصر السلطان حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون، ومن دون أي مقدمات، تقع عيناي على اسم أحد من تُوفوا في السنة الرابعة من حكمه: شمس الدين محمد بن عيسى بن كر!

ولعدة أيام طاردني اسم «ابن كر» بإلحاحٍ أيقنت معه أنه مُصرٌّ أن تُحكَى حكايته..

لكن المشكل أن المعلومات التي وصلتنا عن «ابن كُر» قليلة جدًّا وغريبة جدًّا في الوقت نفسه؛ فنحن لا نعرف غير أن أباه قد هربَ من العراق إلى مصر عندما اجتاح التتارُ بغداد، وفي مصر وُلد شمس الدين ابن كر، ودرس المذهب الحنبلي على يد فقهاء عصره، ثُمَّ أنشأ زاوية

صغيرة بالقرب من مسجد الحسين، وأخذ يُدرِّس فيها الفقه الحنبلي.

أما متى نادته «ندَّاهة» الموسيقى؟ وكيف؟ وكيف أصبح إمامًا لأهل الموسيقى في عصره؟ فهذا ما لا يعرفه أحد!

كل ما تُجمع عليه كتب التاريخ وكتب طبقات الحنابلة التي تؤرِّخ لسير حياة فقهاء الحنابلة أنه كان فقيهًا حنبليًّا وموسيقارًا في آن!

ومع ذلك، لم يكُن «ابن كُرٍ» يتكسَّب بالموسيقى بأي شكل من الأشكال، بل كان معتكفًا على الدوام في زاويته ومشغولًا بتدريس الفقه الحنبلي، وبالتلحين والغناء، كما لو أنه يتعبد لله بالموسيقى!

وفي زاويته تلك، كتب «ابن كُر» رسالته «غاية المطلوب في فن الأنغام والضروب»، التي تناقش الأخطاء التي وقع فيها «الفارابي».

يُعد العالم الموسوعي محمد بن أبي النصر الفارابي من أعظم العقليات الفذة التي أنجبتها الحضارة الإسلامية، كان فيلسوفًا وطبيبًا وموسيقيًّا أيضًا، ولعل كتابه «الموسيقى الكبير» هو أهم كتاب عربي عن الموسيقى كُتب إلى اليوم، وعادة ما يضرب المثل على براعة «الفارابي» بهذه الحكاية الخيالية اللطيفة: أنه كان جالسًا ذات يوم في بلاط سيف الدولة وأخذ يعزف على آلة القانون فضحك كل مَن في المجلس، ثُمَّ عزف لحنًا آخر فبكى الجميع، أما اللحن الثالث الذي عزفه «الفارابي» فقد تسبب في أن غطَّ الحضور في سبات عميق!

وبعد وفاة «الفارابي» بنحو أربعمائة سنة، ستُنسب الحكاية نفسها لـ«ابن كُر» لتأكيد عبقريته، وللربط بينه وبين «الفارابي». لقد كان «ابن كر» موسيقيًّا من طراز نادر لا يقل عن «الفارابي» ذاته إن لم يفُقْهُ.

وبمرور السنين، تدُب الشيخوخة في أوصال زاوية «ابن كر»، فيرزقها الله بمن يعيد بناءها، وبعد ثلاثمائة سنة يتقرَّب أحدهم لله بهدم الزاوية وإعادة بنائها من جديد، وينشئ بجوارها سبيلًا، وينسى الناس اسم «ابن كر»، ولا تُعرف الزاوية والسبيل إلا باسم مُنشئهما الجديد: محمد أفندي البازدار!

عندما نقف اليوم أمام جامع الحسين، غالبًا ما نعتقد أن الساحة الشاسعة التي أمامه موجودة منذ القدم، بينما تم إنشاؤها في واقع الأمر في ثلاثينات القرن العشرين، وقبلها كانت هذه المساحة ممتلئة بمبانٍ قديمة قررت الحكومة المصرية إزالتها سنة ١٩٣٠م لتُنشأ بذلك ساحة الإمام الحسين.

من ضمن تلك المباني القديمة، كانت بقايا مسجد «البازدار» الذي حل محل زاوية شمس الدين ابن كر..

قامت مصلحة التنظيم، حينها، بنقل السبيل من موقعه القديم بدلًا من هدمه، وهكذا انتقل سبيل «البازدار»، آخر ما تبقى لنا من رائحة الموسيقار الحنبلي شمس الدين ابن كر، إلى شارع درب القزازين، أي أن السبيل قد غيَّر موقعه وتحرَّك من أمام مسجد الحسين إلى ما وراءه!

فالأماكن كبني البشر تمامًا.. تولد صغيرة وتشيخ مع الزمن، وقد تتحرك وتغيِّر أماكنها أحيانًا!

(ميدان الحسين حيث كانت زاوية ابن كر)

«أبو العلا».. السلطان المتحوِّل!

مثَّل المعممون صُلب الجهاز الإداري للدولة؛ فهم أرباب الأقلام، أي الموظفون المدنيون، في مقابل أرباب السيوف، أي المماليك. وقد اختصَّ فريقٌ من المعممين بالعلوم الدينية، فكان منهم القضاة والشيوخ. واختص فريق آخر بالوظائف الديوانية، المتعلقة بإدارة الدولة ودواوين الأمراء، وعُرفوا جميعًا بالمعممين لتميُّزهم بضخامة عممهم عن سائر عمائم طبقات المجتمع الأخرى.

ومن بين مئات أو آلاف المعممين، الذين وصلتنا نُتَفٌ من أخبارهم في كتب التاريخ والتراجم المملوكية، ظل فخر الدين محمد بن فضل الله من الشخصيات الناصعة النادرة طول عصر المماليك.

بدأ «الفخر» حياته كاتبًا، وترقى في مناصب الدولة الإدارية إلى أن أصبح ناظرًا للجيش، أحد أهم المناصب الإدارية في الدولة، والذي

كان صاحبه مسؤولًا عن إقطاعات الأجناد في مصر والشام، أي أنه هو مَن كان يحدد مرتبات المماليك من أصغر جندي إلى كبار أمراء الجيش في طول الدولة المملوكية وعرضها.

أما عن كونه قبطيًّا، فالمؤرخون يذكرون أن ضغوطًا كثيرة قد مُورِست عليه لكي يُسلم، لكنه كان عنيدًا وصلبًا للغاية، وأعلن أنه سينتحر إذا أجبروه على تغيير دينه، وعندما كفُّوا أذاهم عنه، وظن الجميع أن المسألة انتهت بذلك، فاجأهم فخر الدين بعدها بإشهار إسلامه!

في تلك الأيام، كان المسلمون الجدد يُطلَق عليهم «المسلمانية»، وكان ثمة انطباع سائد أن «المسلمانية» ليسوا صادقين في إسلامهم، وأنهم يتظاهرون بتغيير دينهم لتحقيق بعض المكاسب المادية، أما في حالة محمد بن فضل الله، فلم يتطرق الشك أبدًا إلى إسلامه، فقد كان الناس يعرفون أنه لا يوجد من يستطيع إجباره على فعل شيء لا يريده!

في مجلس الناصر محمد بن قلاوون، أعظم سلاطين المماليك، كان ابن فضل الله يقف في وجه السلطان يرد عليه الكلمة بعشرٍ من دون أن يخشى في الحق لومة لائم، لدرجة أن الناصر محمد قد غضب عليه يومًا وطرده من مجلسه، وبعدها عفا عنه وأعاده إلى مناصبه التي كان قد عزله منها، بشرط واحد فقط، إذا أراد أن يعارض أحد قراراته فليكُن هذا فيما بينهما وليس على الملأ!

وكانت له أيادٍ بيضاء على الجميع، لا يتأخر عن مساعدة مَن يطلب المساعدة مِن مصر إلى الشام، بنى مستشفى في الرملة، ومدرسة في نابلس، وكلاهما في فلسطين. وفي آخر أيامه تنازل عن مُرتَّبه للدولة، والأهم من هذا كله أن الناس كانوا مطمئنين وآمنين على حياتهم وثرواتهم ما

دام «فضل الله» موجودًا إلى جوار السلطان.

وبعد وفاته، تنفَّس الناصر محمد الصعداء؛ فقد مات الرجل الوحيد الذي كان يقف له بالمرصاد ويمنعه عن ظلم خلق الله!

تذكُر بعض المصادر أن الناصر محمد بن قلاوون عندما بلغه وفاة «فخر الدين» قال: «إن الفخر له خمس عشرة سنة ما يدعني أعمل ما أريد»!

ومع ذلك، فقد كان حظ الفخر عاثرًا، بنى لله ثلاثة جوامع، تهدَّم اثنان منها، أما الثالث فقد تغيَّر اسمه!

وبسرعة نسي الناس فخر الدين محمد بن فضل الله، رجل الدولة البارع الذي طالما دافع عن مصالحهم، وعندما تم تجديد جامعه، الذي بناه في بولاق، بعد عدة سنوات من وفاته، تغيَّر اسمه، فأصبح يُعرف باسم أحد أولياء الله الصالحين!

تُبالغ كتب الطبقات الصوفية في تعظيم هذا الولي صاحب الكرامات المدهشة، أهمها بالطبع: كرامة التحولات؛ حيث كان هذا الولي يستطيع أن يُغيِّر من شكله كيفما شاء، فكان مريدوه إذا دخلوا عليه خلوته وجدوه تارةً يلبس لبس العسكر، وتارة يتزيَّا بزي الفلاحين، مرّةً يجدونه قد أخذ شكل الأسد، ومرّةً يُصبح في هيئة الفيل، هذا الولي كان اسمه الحسين أبو علي، وحاليًّا نعرفه جميعًا باسم شهرته: السلطان «أبو العلا»!

(جامع السلطان أبو العلا)

كَفر «قايتباي»!

تُبهرني دائمًا العلاقة الوثيقة بين أهل الإسكندرية والسلطان الأشرف «قايتباي»، فعادةً ما يتعاملون معه على أنه سلطان الإسكندرية، على الرغم من أن «الأشرف» في واقع الأمر زار الإسكندرية على عجالة من أمره مرتين فحسب، أما قلعته، فالأشرف «قايتباي» كان آخر البنَّائين العظماء، ولم يترك مكانًا في القاهرة إلا وترك فيه بصمته بما يليق بواحد من أعظم سلاطين المماليك، مَن كان عصره بمثابة حلاوة روح لدولة سلاطين المماليك التي ستنهار للأبد بعد رحيله بسنوات معدودة.

ومع ذلك كله، اشتُهر «قايتباي» بخَصلة سخيفة: الدناوة!

لم يكُن الأمر بُخلًا بالمعنى المعروف، فلو كان «قايتباي» بخيلًا لم يكُن لينفق هذه المبالغ المهولة على منشآت جديدة بلا عدد، وعلى إصلاحات جمَّة وحملات عسكرية مكلّفة، وكان مِن الممكن جدًّا أن يبني لنفسه

جامعًا أو مدرسة يُخلد بها ذكره كما فعل أسلافه من السلاطين، ثُمَّ يتفرغ بعدها للاستمتاع بنعيم الملك وأبهة السلطنة.

ومع ذلك، فحين تُراجع تاريخ الأشرف «قايتباي»، تستشعر أن السلطان كان واقعًا باستمرار في صراع دائم بين السخاء والكرم من ناحية، والتقتير والدناوة من ناحية أخرى!

فقد كان من المعتاد، مثلًا، أن يقوم سلاطين المماليك بذبح قطعان من الخراف والبقر وتوزيع اللحوم صبيحة يوم عيد الأضحى على الأمراء ومَن دونهم، كلٌّ على حسب مرتبته، وفي إحدى السنين، ارتفع ثمن الأعلاف جدًّا، فأمر «قايتباي» أن يتم الذبح وتوزيع اللحوم قبل العيد بخمسة وعشرين يومًا توفيرًا لثمن العلف!

وربما كان تقتير «قايتباي» هو ما دفعه إلى تجديد جامع قديم يُعرف بجامع «المقسي»، يقع على النيل في مكان مدهش بجزيرة الروضة، كان المُنشِئ الأصلي لهذا الجامع هو فخر الدين محمد بن فضل الله، وبعدها رممه الصاحب شمس الدين المقسي، فنُسي اسم فخر الدين كالعادة وعُرف المسجد باسم «المقسيّ»، وكان قرار السلطان «قايتباي» أن يتم ترميم المسجد بدلًا من إعادة بنائه من جديد توفيرًا للنفقات!

صحيحٌ أن سخاء «قايتباي» هو من انتصر في النهاية، ونزل السلطان على رأي مهندسه الأثير البدر حسن بن الطولوني وقرر أن يهدم جامع «المقسي» ويعيد بناءه من جديد، ويبدو أن المهندس ابن الطولوني قد وقع في غرام المسجد بعد أن تم بناؤه، فاعتاد أن يحتفل فيه في الليلة الرابعة عشرة من كل شهر هجري حين يصير القمر بدرًا؛ حيث يدعو القُرَّاء والوعاظ، ويُقيم الخيام للمدعوين في الهواء الطلق بين المسجد

ونهر النيل، حتى عُرفت هذه الليالي بـ«البدرية»، لاكتمال البدر فيها، وتخليدًا لاسم البدر حسن بن الطولوني.

كما ارتبط المسجد بشخصية فذّة أخرى، جلال الدين السيوطي، الذي اختار اعتزال ضجيج القاهرة والإقامة في جزيرة الروضة في بيت يجاور مسجد «المقسي»، فقد كانت جزيرة الروضة متنزهًا بديعًا منذ الفتح الإسلامي، وعبر عصور الطولونيين والإخشيديين والفاطميين امتلأت الجزيرة بالقصور والحدائق الخلابة، حتى إن «السيوطي» قد صنّف كتابًا خصيصًا عنها، سماه «كوكب الروضة»!

وبعد نحو ثلاثمائة سنة، كانت الدنيا قد تغيَّرت، فعندما دخل الفرنسيون إلى القاهرة أقاموا مصنعًا للبارود يجاور جامع «قايتباي»، بل إنهم قاموا بتخزين البارود والكبريت في الجامع نفسه، وذات يوم بعد خروج الفرنسيين من مصر، كان أحد أولاد البلد يسير مع ابنه قرب الجامع، ويبدو أن نسيم النيل قد دعاه للتدخين، فأخرج جوزته كي يدخِّن، والنتيجة أن النار قد أمسكت في البارود واحترق الجامع، ومات صاحبنا وابنه محروقين!

ولهذا، فمن الوارد أنك لن تنبهر كثيرًا وأنت تزور جامع الأشرف «قايتباي» بجزيرة الروضة، على الرغم من أنه كان واحدًا من أعظم وأفخم المساجد المملوكية، حتى إن هذا الجزء من الروضة الذي يقع فيه الجامع ظل اسمه لمئات السنين كَفر «قايتباي»!

الأنبياء وارض مصر

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

ما فعله ابن مماتي في قراقوش!

إذا دخلت القاهرة يومًا من باب الفتوح، وبعد أن تمر على جامع الحاكم بأمر الله ببضع خطوات ستجد عن يمينك شارع بين السيارج، في مكان ما هنا كان يسكن بهاء الدين قراقوش!

قراقوش بن عبد الله الأسدي، بالطبع لم يكُن اسم أبيه «عبد الله»، والواقع أننا لا نعرف اسم أبيه بالضبط، فقد كان عبدًا رقيقًا خُطف وبيع في طفولته، والأسوأ أنه كان طواشيًّا، أي خصيًّا، خصاه تجار الرقيق كي يصبح مثل الآلة، ينحصر تركيزه في تنفيذ الأوامر بلا عواطف أو مناقشة، ومن يدٍ ليد، وصل «قراقوش» إلى أسد الدين شيركوه، ونُسب إليه، فأصبح يعرف بـ«الأسدي»، وأخيرًا وصل «قراقوش» إلى يد صلاح الدين الأيوبي، وأصبح واحدًا من أهم قادته العسكريين، وهو الذي بنى السور الذي يحيط بالقاهرة، والأهم أن «قراقوش» هو الذي أشرف على بناء القلعة ذاتها!

كل كتب التاريخ الرسمي تكيل المديح لبهاء الدين قراقوش، وكان من الطبيعي، والحال كذلك، أن يدخل «قراقوش» التاريخ على أنه محارب عظيم وسياسي بارع، لولا كتاب الأسعد بن مماتي!

كان «الأسعد» موظفًا كبيرًا أيام صلاح الدين الأيوبي، بالإضافة إلى كونه أديبًا وشاعرًا ومثقفًا، وكان مصريًّا بحق، صعيديًّا من أسيوط، جده لم يكُن اسمه «مماتي»، إنما اكتسب هذا اللقب بطريقة عجيبة؛ وذلك لأنه في شدة المجاعة التي ضربت مصر، أواخر عهد الفاطميين، كان يوزِّع الأطعمة على الأطفال الصغار في الشوارع لوجه الله تعالى، ولعطفه وحنوه على الأطفال سموه «مماتي»، وهو اسم للتدليل مشتق من أُمٍّ أو ماما!

تمدح كتب التراجم «مماتي» للغاية، وهو أمر نادر بمقاييس العصور الوسطى باعتبار أنه عاش ومات مسيحيًّا، أما ابنه وحفيده الأسعد فقد أسلما في أيام صلاح الدين الأيوبي. و«الأسعد» هو صاحب هذا الكتيب الصغير «الفاشوش في حكم قراقوش»!

«الفاشوش» ليس كتاب تاريخ، بل كتاب كوميديا سوداء، الهدف الظاهر منه هو التهكم على «قراقوش» والسخرية منه ومن أحكامه، أما الحقيقة فإن «الأسعد» ينتقد فيه كل حاكم مستبد، «قراقوش» أو غيره، وأحيانًا ينتقد سلبية المحكومين أنفسهم وتقاعسهم عن المطالبة بحقوقهم. وانتشرت حكايات «الفاشوش» وأصبحت على كل لسان، خاصة أن الأسعد بن مماتي قد كتبها بأسلوب بسيط جدًّا، كما لو أنه يوجهها بالأساس للبسطاء وعوام الناس.

وحتى بعد وفاة ابن مماتي بنحو ثلاثمائة عام، كانت حكايات «الفاشوش»

منتشرة ومعروفة، ووجدها العلامة جلال الدين السيوطي فرصةً مناسبةً لانتقاد ظلم حكام عصره المماليك، فذكر أن أحد الناس قد سأله عن حقيقة حكايات «الفاشوش»، فجمع كل حكايات «قراقوش» وأملاها للناس في درسه الذي كان يحضره المئات، وربما الآلاف، في جامع أحمد بن طولون، وهي الحكايات التي حققها ونشرها كاملة للمرّة الأولى الدكتور عمرو منير.

ولكَ أن تتخيل جلال الدين السيوطي، أهم فقيه في القرن التاسع الهجري، وهو يحكي مثل هذه الحكايات في درسه:

كان أحد الفلاحين يركب مركبًا هو وزوجته، وكان يركب معهما أحد الجنود، أخذ الجندي يغازل زوجة الفلاح، التي كانت حُبلى في الشهر التاسع، وعندما صدته وشتمته ضربها الجندي فأسقطت حملها.

جرى الفلاحُ المسكين ليشتكي لـ«قراقوش»، فطيَّب خاطره وحكم بأن يأخذ الجندي زوجة الفلاح عنده، ويعيدها لزوجها حُبلى من جديد بعد تسعة أشهر!

أو هذه الحكاية المدهشة، حكاية الرجل الذي أمسكوه متلبسًا وهو يُجامِع حمارة، وعندما أتوا به إلى «قراقوش» أمر بإقامة الحد على الحمارة! وحين سأله الناس عن ذنبها، أخبرهم «قراقوش» أن الحمارة لو لم يكُن لها غرضٌ لكانت رفست الرجل، ولو سكتنا على هذا فستنقرض ذرية الآدميين وتسود ذرية الحمير!

وكأن الأسعد بن مماتي يصرخ في جموع المصريين يطالبهم برفض الظلم والثورة على استبداد الحكام، بدلًا من أي يصبح مصيرهم كمصير الحمارة!

حرق إصبع الشهيد!

«السنكسار» القبطي هو كتاب يسجل سير قديسي الكنيسة القبطية وشهدائها، لا يهتم «السنكسار» بالتفاصيل التاريخية، بل بتسجيل سيرة حياة القديسين ومعجزاتهم ويوم استشهادهم.

يحكي «السنكسار»، مثلًا، في أسطر قليلة، عن قديس اسمه يُحنس السنهوتي، «يُحنس» كان مصريًّا، من بلدة موجودة حتى اليوم في محافظة الشرقية، اسمها سنهوت، وقتله الوالي الروماني عندما أظهر إيمانه بالمسيح، وتحيي الكنيسة القبطية حتى اليوم ذكرى استشهاده في يوم ٨ بشنس من كل عام.

في أيام المماليك، كان الأمر مختلفًا تمامًا؛ فقد كان عيد الشهيد يُحنس السنهوتي واحدًا من أهم الأعياد الشعبية في مصر كلها، كانت جموع المصريين تشد الرحال لشبرا الشهيد، حيث مركز الاحتفال، وهناك

ينصبون خيامهم على ضفاف النيل، ويقضون الليل في الرقص والغناء والسُّكْر بلا حدود، لدرجة أن فلاحي شبرا الشهيد كانوا يدفعون خراجهم (الضرائب السنوية) المفروض عليهم من أرباح بيع الخمور في هذا اليوم فقط!

وفي يوم عيد الشهيد، كانوا يقومون بهذا الطقس الغريب:

من كنيسة يُحنس السنهوتي يخرجون صندوقًا صغيرًا، يحوي هذا الصندوق إصبع الشهيد «يُحنس» شخصيًّا، وفي يوم العيد يخرجون الإصبع من الصندوق ويغسلونها في النيل، ثُمَّ يرجعونها إلى الصندوق مرَّة أخرى، وكان الشائع بين الناس أنه إذا لم يتم غسل الإصبع في النيل سنويًّا، فلن يفيض النهر، وسيعم الخراب أرض مصر.

وظل الاحتفال السنوي بعيد الشهيد مستمرًّا حتى سنة ٧٥٥ للهجرة.. حينها كان يحكم مصر والشام السلطان صالح بن محمد بن قلاوون.

كان «الصالح» طفلًا في السابعة عشرة من عمره، وبلا حول ولا قوة، أما الذي كان يحكم مصر بالفعل فثلاثة أمراء كبار، هم: «شيخون» و«طاز» و«صرغتمش».

لا نعرف بالضبط مَن مِنهم هو صاحب هذه الفكرة الشيطانية: الاستيلاء على أراضي «الرزق الأحباسية» الخاصة بالكنائس والأديرة، أي مصادرة الأوقاف التي يُصرف ريعها على الكنائس.

فبسرعة، تم حصر هذه الأراضي الشاسعة، ووجدوا أنها تزيد على ٢٥ ألف فدان، وقرروا أن يتم تقسيمها على المماليك والفقهاء!

قرار كارثي كهذا كان من المتوقَّع أن يقلب البلد رأسًا على عقب؛

لذلك قرروا أن يصلوا بالأمر إلى مداه ويطرقوا الحديد وهو ساخن، وبتزامن غريب أخذ بعض المواطنين الشرفاء يرسلون أوراقًا إلى المحكمة يتظلمون فيها من أن المسيحيين يقومون ببناء كنائس جديدة، ويزيدون من مساحة الكنائس القائمة بالفعل، وأن كل هذا مخالفٌ لأحكام الشريعة الإسلامية، فأمر السلطان بأن تُهدم الكنائس الجديدة فورًا، وكان الهدف من وراء قرارات الهدم هو المداراة على نهب أراضي الأوقاف المسيحية؛ إذ ما جدوى الأوقاف إذا ما كان وجود الكنائس نفسها غير قانوني أصلًا؟!

ووسط هذه المعمعة، تذكر الأمير «صرغتمش» حكاية إصبع الشهيد، فبعث الجند لشبرا فورًا، وهناك هدموا كنيسة الشهيد، واستولوا على الصندوق الذي يحوي الإصبع، وأحضروه للسلطان الطفل الذي كان جالسًا يتشمَّس على النيل في باب اللوق، ويبدو أن «الصالح» وجدها فرصة ملائمة لكي يثبت لنفسه وللناس أنه سلطان حقيقي وليس مجرد واجهة يحركها مماليك أبيه الأقوياء، فأمر بأن تُحرق إصبع الشهيد وأن يُذرى رمادها في النيل!

فإذا رأيت يومًا مداخن شبرا الشهيد، التي أصبح اسمها اليوم شبرا الخيمة، نسبة للخيام التي كانت تُنصب في كل مكان على النيل يوم عيد الشهيد، فتذكَّر الشهيد يُحنس السنهوتي، والسبب الحقيقي الذي حُرق من أجله إصبعه!

«صرغتمش» والجنيهات الخمسة!

هل هناك علاقة بين عمر بن الفارض و«صرغتمش» الناصري والجنيهات الخمسة؟!

لنرَ!

كان «صرغتمش» هو أغلى مملوك اشتراه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الإطلاق؛ حيث اشتراه بأربعة آلاف دينار، وهو رقم فلكي حتى بمعايير ذلك الزمان.

ومع ذلك، فقد كان «صرغتمش» مثالًا للشخص نصف الموهوب، مجرد مملوكٍ جميل القسمات، حَضَر دروسًا في اللغة العربية والفقه والتجويد، وأصبح يستطيع الكلام كمثقفي عصره، بينما هو في واقع الأمر تافهٌ بلا رأي ولا تدبير، و«أخلاقه كان فيها شراسة» كما يصفه المؤرخ ابن أيبك الصفدي؛ لذلك فلم يكُن له ذكر طول عصر الناصر محمد بن قلاوون

على الرغم من المبلغ الفادح الذي دفعه ثمنًا له، فلم يوَلِّه «الناصر» أي منصب قيادي طول حياته، ولم يظهر «صرغتمش» على مسرح التاريخ إلا بعد وفاة محمد بن قلاوون، وبداية حكم أولاده الضعاف، حتى أصبح الآمر الناهي بلا منافس حقيقي في دولة السلطان حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون.

والمشكلة الحقيقية أنه قد طمع فيما هو أكثر من ذلك، في عرش مصر ذاته!

لم يتسرع السلطان «حسن»، وأعد للأمرِ عدته بصبر وأناة، لم يكُن يراجع «صرغتمش» في أيٍّ من قراراته، ترك له الحبل على الغارب، ولشهر كامل أخذ يُسبغ عليه الإنعامات والهدايا، وفي لحظة واحدة ألقى القبض عليه هو ورجاله!

بالطبع لم يمر خبر القبض على «صرغتمش» مرور الكرام، فقد ثار مماليكه وهاجموا القلعة بيأس، محاولين اقتحامها وتحرير أستاذهم، واشتبكوا مع مماليك السلطان في قتالٍ عنيفٍ استمر طول النهار، وعند العصر كانت الدائرة قد دارت على مماليك «صرغتمش»، وأُلقي القبض على من تبقَّى منهم، أما العوام فقد تكفلوا بنهب بيته!

بعدها قرر السلطان «حسن» أن يُعتقل «صرغتمش» ومماليكه في الإسكندرية.

كانت الإسكندرية حينها بالنسبة للمماليك هي بوابة العالم الآخر، وعندما يتم اعتقال أحد الأمراء في الإسكندرية بعيدًا عن مماليكه ونفوذه، غالبًا ما يكون ذلك تمهيدًا للتخلُّص منه بهدوء.. وكان «صرغتمش» يعي ذلك تمامًا، فبعث برسالة إلى السلطان «حسن» يستعطفه فيها،

رسالة بدأها بذلك البيت الجميل لعمر بن الفارض:

قلبي يُحدِّثني بأنك مُتلفِي

روحي فداك عرفت أم لم تعرفِ!

وغالبًا سخر السلطان «حسن» من تلك الرسالة، خاصة أنه قد وصل من الإسكندرية بعدها بقليل خبر وفاة «صرغتمش»!

ومن هذه اللحظة أصبح السلطان «حسن» هو الحاكم الأوحد لمصر بعد أن استطاع التخلُّص من مماليك أبيه الكبار الذين كانوا يكبِّلون حركته ويسيطرون على مفاصل الدولة، ولا بُدَّ أنه اعتقد حينها أنه لن يجرؤ أحدٌ على الوقوف في وجهه بعد اليوم، وربما أصبح واثقًا بأنه سيحكم مصر والشام لخمسين سنة مقبلة بلا شريك كما فعل أبوه من قبل، تلك الثقة المفرطة التي ستتسبب في مقتله بعد سنوات قليلة بطريقة ساذجة!

ومع ذلك، تبقى الأماكن شاهدة على أصحابها، ومذكِّرةً بأحوالهم ومآلاتهم، فلقد بُنيت مدرستا «صرغتمش» والسلطان «حسن» في وقت ومكان متقاربين، أما السلطان «حسن» فقد قتل «صرغتمش»، ورُسمت مدرسته على المائة جنيه، في حين تحاول مدرسة «صرغتمش» أن تتطاول وتُظهر نفسها بصعوبة من خلف جامع أحمد بن طولون على الجنيهات الخمسة!

يلبغا العمري.. القاتل والمقتول!

بعدما عانى السلطان «حسن» الأمرَّين حتى تخلَّص من مماليك أبيه الكبار الذين كانوا جاثمين على أنفاسه فلا يستطيع أن يقطع أمرًا من دون الرجوع إليهم، إذا به يُصبح للمرَّة الأولى حاكم مصر الأوحد بلا منازع، فأخذ يُرقِّي مماليكه الذين اشتراهم وربَّاهم على يديه، ويوليهم المناصب النافذة في الدولة وهو يظُن أنه يحمي نفسه بذلك.

إلى أن ظهر له ما لم يكُن في حسبانه: يلبغا العمري الخاصكي!

كان «يلبغا»، الذي يعني اسمه «الثور الشجاع»، هو أحد مماليك السلطان «حسن»، اشتراه السلطان ورقَّاه حتى جعله أحد «الخاصكية»، أي: خواص السلطان وأكثر من يأتمنهم على حياته، أو هكذا كان يظن!

والظاهر أن طموح «يلبغا» كان بلا حدود؛ فقد أخذ يفعل ما يحلو له في طول البلاد وعرضها، لدرجة أنه كثيرًا ما كان يضرب عرض الحائط

بأوامر السلطان «حسن» ذاته ويتصرف وفق هواه، وعندما يتكرر أمر كهذا من أمير مملوكي مقرَّب من السلطان فلا معنى لذلك سوى أن نفسه قد سوَّلت له أن ينظر إلى أعلى، إلى عرش مصر!

هنا قرر «حسن» أن يتغدَّى بـ«يلبغا» أولًا، فاصطحب حاشيته وخرج ليصطاد عند أهرامات الجيزة، وهناك أعمته الثقة المفرطة، فقرر فجأة، ومن دون ترتيب، أن يقبض على «يلبغا» بمعاونة بعض مماليكه، لكن «يلبغا» كان متنبهًا، فاستطاع أن يهزم السلطان «حسن» ويطارده حتى القاهرة، وقبل شروق الشمس كان «الثور الشجاع» قد قضى على السلطان «حسن»، ومن حينها وحتى اليوم لم يعرف أحد كيف قُتل السلطان أو أين دُفن بالضبط.

بعدها أصبح يلبغا العمري هو الآمر الناهي في مصر، هو من يُعيِّن السلاطين الأطفال وهو من يخلعهم، وظل ست سنوات كاملة ينتظر الفرصة المناسبة لكي يُحقق حُلمه القديم ويُعلن نفسه سلطانًا لمصر والشام. والمشكلة أن السنوات التي مرَّت عليه جعلته غاضبًا على الدوام، يثور لأتفه الأسباب، وإذا ثار فلا يمكن أن تَخمد ثورته إلا بعد أن يُعذِّب بعضًا من مماليكه، بالجلد والضرب حينًا، وبقطع الألسنة حينًا آخر!

وكانت قسوة «يلبغا» المفرطة سببًا في أن يُقرر مماليكه التخلُّص منه..

أحكم المماليك مؤامرتهم بمهارة، فعرَّفوا السلطان الأشرف «شعبان» بنيَّتهم، فشجَّعهم «شعبان» بعد أن وجدها فرصة جاءته على طبق من ذهب للتخلص من تحكُّم «يلبغا»، وبعد كرٍّ وفرٍّ وبعض المطاردات السينمائية، إذا بـ«يلبغا»، الخاصكي، الذي كان بينه وبين عرش مصر

خطوة واحدة، يجد نفسه واقفًا وحده عند مدرسة السلطان «حسن»، وبجواره مملوكٌ واحد فقط، حينها ترجّل «يلبغا» عن حصانه، وسلَّم سيفه لمملوكه، وذهب إلى أهله ليودِّعهم وينتظر مصيره المحتوم..

والحقُّ أن انتقام المماليك كان شنيعًا؛ فقد تكاثروا عليه وقطَّعوه بالسيوف، ثُمَّ قطعوا رأسه وشووه على النار، والذي تبقى من جثته دفنوه في مقابر قديمة عند القلعة، تلك المقابر التي سيحل محلها بعد سنوات طويلة «الدفترخانة»، التي تجاور اليوم ما نعرفه باسم «دار المحفوظات العمومية»!

ويبدو أن الرعب كان يملأ نفْسَ يلبغا العمري منذ أن قتل أستاذه السلطان «حسن»، رُعب القاتل من أن تضيع حياته في طرفة عين كما حدث مع من قتله، هذا الرعب الذي جعل «يلبغا» يستسلم في لحظة واحدة من دون أن يُفكر في الهرب مثلًا، كما لو أنه أيقن حينها أن الموت الذي طالما هرب منه أصبح الآن أمرًا مقضيًّا وقدرًا إلهيًّا!

(دار المحفوظات)

سطوة الأماكن

للأماكن سطوة خادعة، سطوة تفوق مُنشئها ذاته، تعيد الأماكنُ رسم صورة مَن أنشأها، تتماهى معه، حتى يصبح المكان العظيم دليلًا لا يقبل الشك على عظمة صاحبه، وفي القاهرة، لا سطوة تفوق سطوة مدرسة السلطان «حسن»..

لكن جامع السلطان «حسن» عادةً ما يثير الإحباط في نفس زائره، تصعدُ سلالم وتسير في ممرات ثُمَّ تجد نفسك في مسجد لا يختلف كثيرًا في الحجم عن أي مسجد آخر، تشعر حينها بأن هناك خطأً ما لا يمكنك أن تضع يدكَ عليه بالضبط.

والسبب أن هذا البناء بالغ الضخامة قد أُعد أصلًا ليكون مدرسة لا مجردَ جامعٍ للصلاة، والمدرسة التي يزيد حجمها بكثير على مكان الصلاة ليستْ مفتوحة للزيارة للأسف، وهناك عالمٌ كاملٌ مجهولٌ وراء

أبواب المدارس الأربعة التي نراها مغلقة على الدوام في صحن المسجد.

أوقف السلطان «حسن» أراضي شاسعة ليُصرَف ريعها على مدرسته، كان إيراد هذا الوقف ضخمًا للغاية كإيراد بلدة كبيرة، ومن دون الرجوع لحُجة الوقف فلن يمكننا بحالٍ أن نفهم الغرضَ الحقيقي وراء بناء مدرسة السلطان «حسن» بهذه الصورة.

كانت المدرسة أشبه بمعهد دراسي وبيتٍ للطلبة معًا؛ حيث كان يقيم فيها إقامة كاملة خمسمائة طالب، يدرس معظمهم العلوم الشرعية، وبعضهم يدرس الطب وعلم الهيئة (الفلك)، غير مائتي طفل يتيم يقيمون باستمرار في المدرسة، ويحفظون القرآن في كتاتيب خاصة بهم، وكانت المدرسة توفر للجميع الطعام والشراب والكساء والرعاية الصحية، إضافة إلى مصروف يدٍ أيضًا!

لك أن تتخيل أن عدد العاملين في المدرسة كان ٣٤٠ شخصًا، منهم ١٢٠ قارئًا يتلون القرآن بلا انقطاع آناء الليل وأطراف النهار في القبة التي من المُفترض أن السلطان «حسن» سيُدفن فيها بعد عمر مديد.

وأنت في صحن الجامع، تتأمل أواوين المدرسة بالغة الضخامة، جرِّب أن تتخيَّل الزحام الشديد الذي كانت عليه المدرسة وطلبتها يملؤون جنباتها، ثُمَّ جرِّب بعدها أن تتخيَّل السلطان «حسن» نفسه، لا ريب أنك ستراه بعين الخيال سلطانًا بالغ المهابة، وفارسًا أسطوريًّا من فرسان العصور الوسطى، وهي الصورة التي تفرضها عليك مدرسته فرضًا، في حين أنه كان في واقع الأمر، كما يحكي معاصروه، شابًّا أشقر الشعر لطيف الهيئة ويمتلئ وجهه بالنمش!

أما نهاية السلطان «حسن» فلم تكُن سعيدة كما ينبغي لصاحب بناء

مدهش كهذا، فقد قُتل بطريقة تافهة وعمره لم يتجاوز الثلاثين سنة، ولم يعرف أحد أبدًا مكان جثته، وبالتالي فلم يُدفن في القبة المباركة التي لم تكُن تلاوة القرآن تنقطع فيها، وربما لولا مدرسته العظيمة، لما سمع عنه أحد ولا تذكره أحد، كحكام بلا نهاية قبله وبعده.

والمفارقة الحقيقية في مدرسة السلطان «حسن» بدأت منذ أن أعلن الأثري الكبير حسن عبد الوهاب، سنة ١٩٤٤م، أنه قد اكتشف اسم المهندس الذي صمّم المدرسة بعد أن عثرَ على اسمه في شريط كتابي في المدرسة الحنفية، فقد وجد جملة وسط النص تدعو للسلطان «حسن» و«لشاد عمارته محمد بن بيليك المحسني»، ورجَّح حسن عبد الوهاب أن «شاد العمارة» هو المهندس، على الرغم من أن أقرب وصف لوظيفة «شاد العمائر» هو المقاول أو المسؤول الإداري عن عملية البناء.

لكن المشكلة هي أنه ثمة رواية ذكرها ابن تغري بردي بخصوص ابن المحسني هذا. فحين فرّ السلطان «حسن» إلى القاهرة ليتحصن في قلعة الجبل هاربًا من مملوكه يلبغا العمري، وصل على أثره «يلبغا» ومماليكه ليقتحموا القلعة، فتصدَّى لهم بشراسة ابن المحسني ومماليكه، وكاد ينتصر على «يلبغا» ويحفظ حياة ومُلك السلطان «حسن» بذلك، لولا أن «يلبغا» أرسل إلى ابن المُحسني يعده ويمنِّيه بالمناصب وأنه لن يغيِّر شيئًا مما هو عليه، فكفَّ ابن المحسني عن القتال، تاركًا الطريق مفتوحًا أمام يلبغا العمري إلى القلعة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا!

ولو صحّت هذه الرواية لكان معنى هذا أن محمد بن بيليك المحسني، الذي صممّ أو أشرف على بناء مدرسة السلطان «حسن»، مخلدًا بذلك ذكره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هو نفسه من أسهم، بتخاذله وخيانته، في قتل السلطان «حسن» وضياع عرشه!

(مدرسة السلطان حسن)

علي الكسيح.. نهاية مضحك السلطان!

تتداعى الأفكار والذكريات بلا ضابط ولا رابط..

تكون واقفًا تحت القبة العظيمة التي دُفن تحتها المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، ولا يُلح عليك لحظتها من سيرة آل قلاوون كلهم إلا حكاية السلطان الطفل حاجي ابن الناصر محمد بن قلاوون.

ولأن المخاض قد جاء لأمه في أثناء عودتها مع زوجها الناصر محمد من أداء مناسك الحج، لذا فقد سموه «حاجي»! وعندما مات الناصر محمد بن قلاوون، مارس مماليكه الكبار لعبتهم الأثيرة في تولية أبنائه الصغار حكامًا صوريين، حتى أصبح الطفل «حاجي» سلطانًا أخيرًا على مصر والشام وعمره ١٥ سنة!

في بادئ الأمر، شُغف بالجواري والمغنيات، فظنّ مَن حوله من الأمراء

أنها فورة شباب سرعان ما تخمد، لكنه تمادى حتى جاوز الحد، فأصبح «حاجي» يغدق عليهن الأموال والهدايا بلا حساب. بعدها اكتشف ولعه بتربية الحمام، فأقام «غيَّة حمام» عملاقة داخل القلعة، وأقام فيها وسط حمامه تاركًا البلد ليحكم نفسه بنفسه، فقد كان «حاجي» مولعًا بالحمام لدرجة أنه أمر المؤذنين في المساجد القريبة من القلعة ألَّا يرفعوا أصواتهم بالأذان حتى لا يُفزعوا الحمام!

ثم يبدو أن «حاجي» قد وسوسَ له شيطانه أنه لن يكون جديرًا بحكم مصر من غير أن يتعلم فنون الصعلكة ويحيا بنفسه مع أدنى طبقات شعبه، فاستقدم إلى القلعة الأوباش من مُطيري الحمام ومُحَرِّشي نطاح الكباش ومُناقرة الديوك وأرباب الملاعيب، وأصبح عاديًّا أن ترى سلطان مصر والشام وهو يقف عند «غيَّة الحمام» يراهن حاشيته على الطير الفلاني أو الحمامة الفلانية، أو أن ترى السلطان واقفًا في القلعة بملابسه الداخلية يلعب التحطيب مع أحد أوباشه!

من بين الحاشية التي أحاطت بـ«حاجي» كان الشيخ علي الكسيح..

كان المُضحك الخاص بالسلطان، وعلى الرغم من أنه كان أحدبَ وكسيحًا بالفعل، وكان لا بُدَّ أن يحمله شخصٌ من مكان لمكان، فإنه كان نديم السلطان وأقرب المقربين إليه، زوَّجه «حاجي» واحدة من جواريه، فأصبح الكسيح عين السلطان الساهرة التي تنقل له كل ما يحدث في بر مصر، وغالبًا ما كان يحاول أن يُجمِّل دائمًا صورة السلطان أمام الناس ويبرر أفعاله العبثية، وكان مُقربًا من «حاجي» لدرجة أن كبار أمراء المماليك ورجال الدولة كانوا يخشونه ويدفعون له مبالغ طائلة اتقاءً لشره لمجرد ألَّا يذكرهم «الكسيحُ» بسوء عند «حاجي»، وأصبح مضحك السلطان هو الواسطة المضمونة لقضاء المصالح والحاجات.

والمشكلة أن «حاجي» لم يكُن مجرد صبي لاهٍ يقضي وقته في اللعب والرقص فحسب، لكنه كان سفاحًا أيضًا، كان يقتل بدم بارد بالبساطة نفسها التي يُطيِّر بها حمامه، وكأنه ظنّ أنه ما دام قد ارتقى عرش مصر فقد أصبح إلهًا يُحيي ويميت كيف شاء بلا حساب.

وعندما دارت الدنيا دورتها، وقُتل السلطان «حاجي» على يد مماليك أبيه، بعدما حكم مصر والشام ما يقل قليلًا عن العامين، وتفرق الأوباشُ الذين جمعهم حوله كلٌّ إلى حال سبيله، لم يستطِع أحد نسيان ما فعله علي الكسيح، فقبضوا عليه ونوّعوا له صنوف العذاب: جلدوه وخلعوا أسنانه وضروسه، وتفننوا في تكسير عظامه إلى أن مات بين أيديهم، والغريب أن أيًّا من المصادر لم تذكر أن الهدف من هذا العذاب كله هو استخلاص الأموال الطائلة التي جمعها «الكسيح» من وراء قربه من السلطان؛ فقد اعتبر المماليك أن من أعان السلطان الجائر وبرَّرَ أفعاله وجرائمه يستحق عقوبةَ مَن قتل بيديه ذاتها.. أو ربما أكثر منها!

رد اعتبار زادة العجمي في الشيخونية!

ثمة طريقة شعبية للاستخارة تسمى «الاستفتاح»؛ يفتح المستخير المصحف عشوائيًّا، وأول آية تقع عليها عيناه يؤولها كيف يشاء ويفهم منها إجابة المسألة التي تشغل باله.

أمارس اللعبة ذاتها أحيانًا بطريقة أخرى..

أفتح أحد كتب التراجم عشوائيًّا، وأرى بمن سيعرفني القدر!

وهكذا تعرَّفت إلى مولانا زادة العجمي، شيخ مشايخ خانقاه شيخون..

يقولون إن «الشيخ البعيد سرُّه باتع»، ويبدو أن زادة العجمي كان فائق الشهرة لدرجة أن السلطان الظاهر برقوق ذاته قد أرسل يستدعيه إلى العراق من بلاد العجم، ومن العراق إلى الشام ثُمَّ إلى مصر، ليتولى التدريس في الخانقاه الشيخونية، فقد كان «زادة» فقيهًا حنفيًّا وعالمًا بالمنطق، كما كان لغويًّا متمكنًا في النحو.

هل أزعج هذا الاستدعاء شيوخ مصر؟

ربما! فقد كان الشيوخ يخافون أن يُزاحمهم أي غريب على نفوذهم وامتيازاتهم، ولكن زادة العجمي لم يعبأ بمثل هذه الصراعات، وظل لسنوات طويلة مكتفيًا بدوره التعليمي ووظيفته كشيخ لمشايخ خانقاه شيخون.

في تلك الأيام، كانت الشيخونية واحدة من أعظم مدارس القاهرة، وكان منصب شيخ مشايخها منصبًا شرفيًّا كبيرًا، إضافة إلى مخصصاته المالية المتميزة، وهو ما جعل القاضي كمال الدين بن العديم يطمع فيه، ويسعى عند أولي الأمر متهمًا زادة العجمي بأنه قد طَعن في السن واختلطت عليه الأمور، ومع طول إلحاحه وسعيه، نجح ابن العديم في أن يعزل زادة العجمي عن مشيخة الخانقاه الشيخونية، وحل هو محله!

وهو ما يعلق عليه المؤرخ ابن العماد بكلمة كاشفة: «ومقَت أهلُ الخيرِ ابن العديم على هذا الصنيع»، نفهم من ذلك أن زادة العجمي كان محبوبًا من الناس، وأن وشاية ابن العديم كانت مشهورة جدًّا أيضًا، وزاد من كُرههم له أن زادة العجمي قد مات مقهورًا بعد عزله من منصبه ببضعة أشهر فحسب.

أما الأسوأ فهو تواطؤ واحد من أهم مؤرِّخي عصر سلاطين المماليك على الشيخ زادة العجمي، وهو المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي، الذي تجاهل ذكر ما قام به ابن العديم في كل كتاباته، على الرغم من أن ابن تغري بردي كان يهتم في تأريخه بذكر أدق التفاصيل. وكل ما قاله في هذا السياق: إن الشيخ «زادة» قد «اختلط في آخر عمره»، أي: كبر في السن وأصيب بالخرف، وحلّ محله ابن العديم!

أما السبب فهو بسيط جدًّا؛ فقد كان كمال الدين بن العديم صهرًا لابن تغري بردي!

واليوم، عندما أدخلُ إلى خانقاه شيخون أو أمرُّ من أمامها فحسب، يلح عليَّ بإصرار طيف مولانا زادة العجمي، الذي حزن عليه بسطاء الناس عندما ظُلِم، والذي قضى آخر سنوات عمره في الخانقاه قبل أن يموت بحسرته ويُدفن فيها.

وعلى الرغم من أن حكاية ابن العديم وزادة وابن تغري بردي تكرَّرت آلاف المرات قبلهم وبعدهم، أن يُقصي واحد الآخر عن منصبه بالدس والخديعة، ويُبرر الثالث فعلته باعتبار أنها من قضاء الله وقدره، فإنني لا أخفي شعوري بالارتياح كلما تذكرت هذه القصة، وكأنني أسهمت بطريقةٍ ما في رد الاعتبار لمولانا زادة العجمي بعد وفاته بستمائة سنة كاملة!

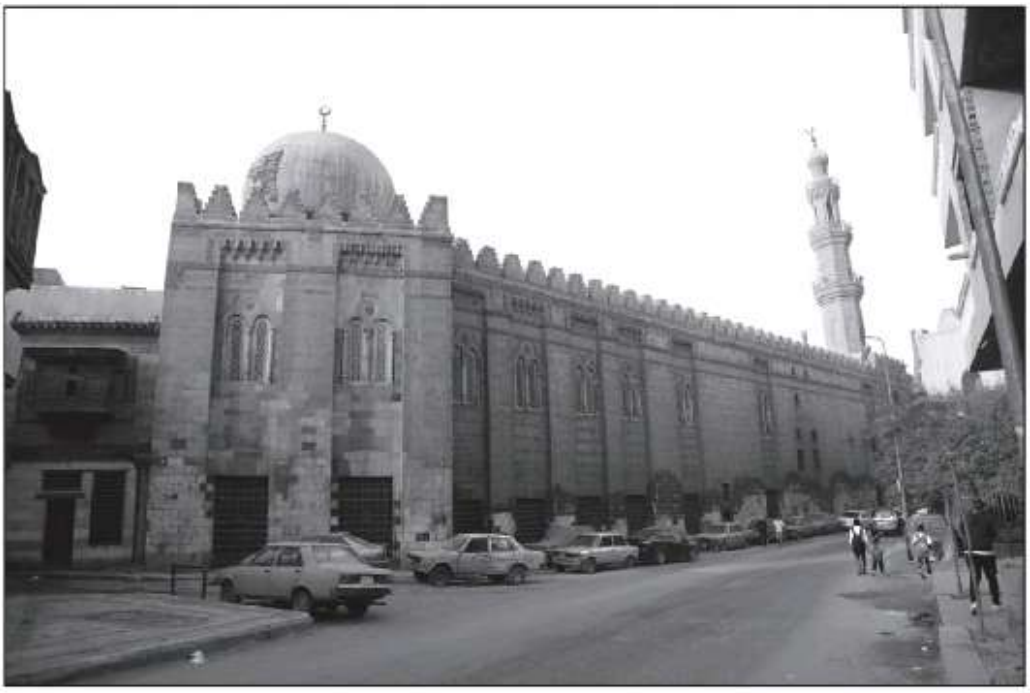

(خانقاه شيخون)

«قرقماس».. جبل الأهرام الذليل!

أكثر ما يسحرني في القاهرة هو طبقات التاريخ المتراكمة بعضها فوق بعض، بحيث إنك تقف مذهولًا أمام مكان واحد وقد مرَّت عليه ألف حكاية في ألف زمن، فتغبطُ الأماكنَ على طول أعمارها وعلى كثرة ما رَأته وكانت شاهدة عليه!

فحين تقف أمام باب العزب، أشهر أبواب القلعة، الذي يواجه مدرسة السلطان «حسن»، فستتذكر أن وراءه حدثت مذبحة القلعة الشهيرة.. أما في زمن آخر يسبق مذبحة القلعة بقرابة أربعمائة عام، فقد حدثت واقعة أخرى أمام هذا الباب مباشرة.

ففي خريف سنة ١٤٣٨م، كان السلطان الظاهر جقمق قد وصل إلى حكم مصر للتو، وكان الرجل الثاني في الدولة هو قرقماس الشعباني،

الذي اشتُهر بلقب «أهرام ضاغ»، أي: جبل الأهرام، وذلك لفرط غروره وتكبره على خلق الله!

كان «قرقماس» أتابك العسكر، أي قائدًا للجيش، وهو المنصب ذاته الذي كان يشغله السلطان الحالي قبل أن يصل إلى الحكم.

وفي لحظة فوران مملوكية، ثارت المماليك على السلطان، وذهبوا إلى «قرقماس» ليبارك خطاهم ويقود ثورتهم إلى القلعة.

أما «قرقماس» الذي يعني اسمه بالتركية «الشجاع»، فلم يكُن شجاعًا كما يبدو الأمر، إنما كان نموذجًا طالما تكرر طول التاريخ وعرضه بين المشتغلين بالسياسة والقريبين من دوائر الحكم، نموذج الطبل الأجوف، من توحي هيئتهم بالهيبة والمعرفة الزائفين. وقد أجاد المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي حين وصف «قرقماس» بعبارة بليغة: «كان فيه طيشٌ وخفة في صورة عقل ورزانة».

كان «قرقماس» ينتظر فرصته منذ زمن، فقرر أن يغتنمها دون تفكير في عواقب الأمور.

ومنذ اللحظات الأولى لتحرك موكب «قرقماس» من بيته خارج باب زويلة، قاصدًا القلعة، أخذت بوادر الفشل في الظهور، فعلى الرغم من عِظم موكبه، فإنه لم ينقصه مجرد الترتيب والنظام، وإنما وحدة الدافع والهدف أيضًا، فكل فصيل في موكب «قرقماس» كان يبتهلُ إلى الله بدعاء خاص يعكس ما يستهدفه من الخروج، فمنهم من يقول: الله ينصر «قرقماس»، والبعض يدعو أن ينصر الله الحق، هكذا على العموم، والأعجب أن فصيلًا ممَّن خرجوا مع «قرقماس» كانوا يرفعون أيديهم ويجهرون بالدعاء للسلطان! وهو ما عدّه المؤرخون الذين عاصروا

الواقعة دليلًا على تخبط «قرقماس» وأولى علامات فشله.

وأخيرًا وصل «قرقماس» بجموعه إلى باب العزب، الذي كان يُعرف حينها بباب السلسلة، وغدا الحلم قريب المنال. وإذا بـ«قرقماس» يجد باب القلعة مفتوحًا أمامه على مصراعيه، فقد كان الأمير المسؤول عن الباب متعاطفًا معه، وكان «قرقماس» يستطيع أن يتقدم ويأمر أتباعه فيقتحموا القلعة وتنجح ثورته ويغدو في طرفة عين سلطان مصر، لكنه تردد وظل حائرًا أمام الباب حتى انهزم، فقد افتقرت الجموع الغفيرة التي كانت معه إلى النظام، واستبد كل فصيلٍ برأيه، ولم يمتلك «قرقماس» الرؤية ولا استطاع أن يوحِّد أتباعه على كلمة واحدة.

أراد «قرقماس» أن يثور، وكان معه كل مقومات النجاح، لكنه لم يعرف كيف يصنع ثورة!

وهنا، أمام باب العزب، رأت الجموعُ «قرقماس» (أهرام ضاغ) بجلالة قدره وقد انهزم وجُرح، قبل أن يلملم شتات نفسه ويفر ذليلًا، لكنه سيُقبض عليه بعد بضعة أيام ويسجن في الإسكندرية، وُيحكم عليه بالقتل حكمًا شرعيًّا باعتباره خرج عن الطاعة وحارب الله ورسوله.. وفي الإسكندرية، سيُذبح «قرقماس» بسيف ثلم، هكذا أكد المؤرخون، أن المشاعلي الذي قام بنحر «قرقماس» استخدم سيفًا غير مصقول، ربما تعمَّد ذلك لكي يتفانى في تعذيبه حتى النهاية!

أما المصريون فلم يتعاطفوا مع «قرقماس»، ربما لأنهم عرفوا مبكرًا قدر تفاهته وخوائه، وعرفوا أنه لو نجح في الوصول للحكم لأصبح مثل من سبقه من الحكَّام أو ربما أسوأ، فحفظ لنا التاريخ تلك العبارة المكثفة التي سخر بها الناس منه: «الفقر والإفلاس ولا ذلتك يا قرقماس»!

(باب العزب)

اللص الذي بنى ثلاثة مساجد!

من الممكن أن تكون قد مررت عشرات المرّات على جامع القاضي زين الدين يحيى بن عبد الرازق الأستادار دون أن تلاحظ وجوده أصلًا؛ ببساطة لأنه يقع في أكثر مناطق القاهرة ازدحامًا، في النقطة التي يتقاطع فيها شارع الأزهر مع شارع بورسعيد.

أما إذا أردت أن تتخيل هيئة القاضي «يحيى»، فلا بُدَّ أن تبدأ من عمامته..

فقد كان المماليك، كطبقة عسكرية حاكمة، مشغولين على الدوام بأمور الحرب والسياسة، أو على الأقل كان هذا ما يدعونه، وبالتالي فقد احتاجوا إلى من يساعدهم في إدارة الدولة، ومن هنا جاءت أهمية طبقة المعممين، أي المدنيين الذين عملوا في الجهاز الإداري للدولة،

كالمحاسبين والقضاة والفقهاء، وتميَّزوا بعمائمهم الضخمة التي كانوا يعتمرونها، وكان القاضي يحيى بن عبد الرازق أحد هؤلاء المعممين!

بالمناسبة، لم يكُن «يحيى» قاضيًا حقيقيًّا؛ فلقبُ «القاضي» كان لقبًا شرفيًّا يُمنح لكبار موظفي الدولة. وقد خلَّف لنا القاضي «يحيى» عددًا كبيرًا من المنشآت ومؤسسات البرِّ، لم يتبقَّ منها إلى اليوم سوى ثلاثة جوامع..

والحقيقة أنني أرتاب دومًا فيمن يبني أكثرَ من جامعٍ واحد؛ فقديمًا لم تكُن الجوامع كحالها اليوم مصلًّى في بدروم عمارة أو زاوية صغيرة، بل كانت مؤسسات ضخمة للتدريس ونشر العلم، وكان لكل جامعٍ وقفٌ ضخمٌ يُصرف من رِيعه على صيانته ورواتب الشيوخ ومقيمي الشعائر والعمّال وطلبة العلم الذين يدرسون به.

فأن يكون هناك شخصٌ واحدٌ عنده القدرة على تحمُّل تكاليف بناء ثلاثة جوامع بتلك الطريقة، لهو مدعاة للريبة والشك..

وفي حالة يحيى بن عبد الرازق، كان شكِّي في محله تمامًا؛ فقد كان «يحيى» موظفًا متسلقًا من الطراز الأول، من نوعية الموظفين الحكوميين المخضرمين خبيري مسح الجوخ للرؤساء ونقل الكلام، وكان من معتادي دفع الرِّشَا لنيل الوظائف المرموقة، وكانت ذروة نفوذ يحيى بن عبد الرازق في أيام السلطان الظاهر جقمق، حين أصبح «يحيى» ناظرًا للديوان المفرد، أي مسؤولًا عن إدارة ثروة السلطان الخاصة، وبعدها أصبح «أُستادار»، وهو منصبٌ كبير نادرًا ما وصل إليه المدنيون أصلًا! وهنا قدَّم القاضي يحيى للسلطان جقمق اقتراحًا شيطانيًّا، أن يستولي على الرِّزَق!

والرِّزَق هي أراضٍ أوقفتها الدولة لتُنفِق من ريعها على أعمال الخير والبر، وأيضًا لكي يُنفق من هذا الريع على الموظفين السابقين الذين هرموا وأصبحوا بطّالين، أي لم يصبحوا قادرين على العمل، وعلى أراملهم وأولادهم، كانت الرِّزَق هي معاشات ذلك الزمان وتأميناته الاجتماعية.

في البداية، قرر «جقمق» أن يفرض ضريبة سنوية على أراضي الرِّزَق، وكانت معفاة من الضرائب قبل ذلك، وفي العام التالي، وافق السلطان على مصادرة الرِّزَق بالكامل، فخربت بيوت أعداد ليس لهم أول ولا آخر من وراء تدبير ابن عبد الرازق، أو على حد تعبير أبي المحاسن بن تغري بردي: «كانت هذه الحادثة التي لم يسمع بمثلها فيما مضى من الأعصار، وعمّ هذا البلاء المسلمين حتى الجوامع والمساجد والفقهاء والفقراء وغير ذلك، فلا قوة إلا بالله»!

ومن أموال الرِّزَق التي استولى عليها الأستادار مع السلطان، بنى القاضي زين الدين يحيى بن عبد الرازق مساجده الثلاثة وسائر مؤسساته الخيرية!

وبعد أن مرَّت أيام الفتوة والعمل، وهَرِمَ القاضي «يحيى» وأصبح هو نفسه بطَّالًا، وأقام في بيته متعبدًا وسائلًا الله حسن الختام، فإذا بالسلطان الأشرف «قايتباي» يتذكره ويستدعيه إلى القلعة وقد قارب عمره ثمانين سنة، ليحاسبه على ما فعله وما اقترفته يداه، وأمر بضربه ثُمَّ حبسه في أحد أبراج القلعة، وأخذ «قايتباي» يُحضره من محبسه يومًا بعد يوم ليُضرب أمامه، وحين أبلغوا السلطان أخيرًا أن «يحيى» قد مات بين أيديهم من فرط الضرب والتعذيب، لم يصدقهم «قايتباي»

إلا بعد أن أحضروا الجثة تحت قدمي السلطان، فكشف عن وجهه وركله بقدمه ليتأكد حينها أن حكاية القاضي يحيى بن عبد الرازق الأستادار قد انتهت للأبد.

(جامع القاضي يحيى بن عبد الرازق)

صاحب القبتين الذي كاد أن يغير التاريخ!

كان يشبك من مهدي الذراع اليمنى للسلطان الأشرف «قايتباي»، ومع أن كلمة «يشبك» تعني «الأمير الصغير»، فإنه كان رجل المهام الصعبة، وأحد أركان دولة «قايتباي» التي يَعتمد عليها في أي معضلة داخل مصر أو خارجها.

ويُقدم لنا «يشبك» صورة كلاسيكية للأمير المملوكي، ذلك الخليط المركّب من العنف والقسوة المرعبة، مع الإلمام بثقافة عصره والإقبال على فعل الخيرات!

فعندما أرسله السلطان «قايتباي» إلى الصعيد لينهي القلاقل التي كانت كثيرًا ما تثور هناك، ظل «يشبك» سبعة شهور متواصلة يسوم أهل الصعيد سوء العذاب، يحرق بعضهم، ويخوزق البعض، ويدفن

آخرين وهم أحياء، وأحيانًا يسلخهم قبل أن يقتلهم. وعندما رجع أخيرًا من الصعيد، استقبله السلطان «قايتباي» استقبال الفاتحين، خاصة أن «يشبك» لم يدخل على السلطان خالي الوفاض، وإنما قدَّم له مائتي ألف دينار حصيلة ما اقترفه في الصعيد!

ومع ذلك، فالمؤرخون الذين عاصروا «يشبك» يتحدثون عنه بكثير من الإجلال والاحترام، ويُسهبون في ذكر ما كان يفعله من أعمال البرِّ والتقوى، ومجالس الأدب والعلم التي كان يُواظب على حضورها.

صورة أخرى من نموذج المستبد العادل التي كثيرًا ما تروق للمصريين، للأسف.

كان «يشبك» مخلصًا للسلطان بطريقة نادرة في عالم المماليك، وعلى الرغم من أن قدراته الإدارية وصلاحياته كانت بالغة الضخامة، وكان مؤهلًا تمامًا لحكم مصر، فإنه لم يكُن يفكر في ذلك أبدًا، ربما لهذا السبب تحديدًا اتخذه «قايتباي» صديقًا وخليلًا، وكثيرًا ما كان «قايتباي» ينزل من القلعة لكي يستجم بضعة أيام في قبة «يشبك»، تلك القبة التي بناها «يشبك» كاستراحة خاصة بعيدة عن ضوضاء القاهرة، وكانت محاطة بحدائق غنَّاء جعلتها «أبهج متنزهات القاهرة»، كما يذكر المؤرخون.

وصحيحٌ أن «يشبك» لم يفكر أبدًا في عرش مصر، لكن ذلك لم يمنع أنه فكَّر في عرش آخر، عرش العراق!

فما حدث أنه كانت هناك مناوشات تقوم بها دولة «الآق قوينلو» التركمانية على حدود الشام، هذه الدولة التي عُرفت باسم «الشاة البيضاء»؛ لأنها كانت تتخذ من صورة شاة بيضاء رمزًا لها ترفعه على أعلامها، وكانت تحكم في هذا الوقت جنوب تركيا والعراق وأجزاء

من إيران والخليج العربي وأرمينيا. وكان «يشبك» يعرف جيدًا أن هذه الدولة في أضعف حالاتها، فطمحَ إلى أن يحكمها ويؤسس فيها مملكته الخاصة، ولو نجح «يشبك» في إقامة دولته على أنقاض «الآق قوينلو» لربما لم تقُم قائمة للدولة الصفوية بعد ذلك أبدًا، ولتغير التاريخ كما نعرفه للأبد.. ربما!

أما تفاصيل ما حدث وتسبب في أن يُهزم يشبك من مهدي وقواته الضخمة بهذه الطريقة الشنيعة، فلا نعرف عنها شيئًا.

لكن المؤكد أن «يشبك» قد أُسر بالرها، جنوب تركيا، لثلاثة أيام، وبعدها قُطع رأسه ليلًا، وحين أشرقت الشمس وجد أصحاب «يشبك» جثته ملقاة على قارعة الطريق بلا رأس وقد كُشفت عورته، فستروه قدر استطاعتهم بأعشاب جافة وجدوها بجواره. أما رأس «يشبك» فقد نقلوها مع الأسرى إلى بلدة ماردين، وأقاموها على رمح بعد أن ألبسوها عمامة ضخمة وطافوا بها في موكب كبير، فلم يكُن يتوقع أحد على الإطلاق أن تدور الدوائر على جيوش مصر والشام بتلك الطريقة أبدًا.

ومن المؤكد أيضًا أن جسد يشبك من مهدي قد وصل إلى مصر بعد ذلك ودفن بلا رأس، وأن آلافًا قد صلوا عليه صلاة الغائب في جامعي الأزهر والحاكم بأمر الله.

ولم يتبقَّ لنا من سيرة يشبك من مهدي سوى قبتين: القبة الفداوية، والقبة الأخرى التي كان يستجم فيها مع صديقه السلطان «قايتباي»، والتي ستصبح بعد ذلك السبب في تسمية سراي وكوبري وحدائق القبة!

ابتهالٌ مُتخيّل في قبة السلطان حسن!

ما نعرفه عن علي بن رحاب قليل حقًّا؛ فكل ما ذكره عنه المؤرخون كان في معرِض حديثهم عن أفراح الأكابر ولياليهم الملاح، كأن يستدعيه الأمير فلان لإحياء فرحه، أو يطلبه خصيصًا الأمير عِلان ليغني في ليلة طهور ابنه. ومن الكلام المتناثر عنه في بطون الكتب سنعرف أن ابن رحاب كان منشدًا ومغنيًا من العيار الثقيل، ولم يكُن له مثيل بشهادة معاصريه.

عاش ابن رحاب في عصر السلطان «قايتباي»، وأدرك الفترة العبثية التي أعقبت وفاة السلطان، والتي حكم فيها ابنه الطفل محمد بن قايتباي.

في تلك الأيام، كان الوضع السياسي محتقنًا للغاية، وكان كل واحد

من الأمراء الكبار ينتظر الفرصة المناسبة لكي يتخلَّص من السلطان الطفل ويصل إلى عرش مصر.

وكان آقبردي الدوادار هو الأوفر حظًّا؛ فقد كان واحدًا من كبار مماليك السلطان الراحل، وأكثرهم نفوذًا، وحسن السمعة بمقاييس عصره.. وهكذا جمع «آقبردي» مماليكه وأنصاره وحاصروا القلعة، لتبدأ بذلك الأحداث التي سيسميها المؤرخون بعد ذلك «فتنة آقبردي».

ظل «آقبردي» محاصرًا للقلعة شهرًا كاملًا، لم يستطِع أحد حصار القلعة لمدة كهذه قبل «آقبردي» أو بعده، ومع ذلك، استطاعت مدافع القلعة أن تكسر الحصار، وتدك مدرسة السلطان «حسن» والأماكن التي تجاورها، والتي كانت تحت سيطرة «آقبردي»، ليفرّ بعدها «آقبردي» إلى الشام وينتهي أمره.

وبعدها، ينقل لنا المؤرخ ابن إياس الحنفي خبرًا عجيبًا عن علي بن رحاب: أن طومان باي الدوادار الجديد قد قُبض عليه، وضربه ضربًا مبرحًا ثُمَّ أشهره في شوارع القاهرة على حمار، والسبب أن ابن رحاب كان يناصر آقبردي الدوادار، وكتب الكثير من الأغاني التي تسخر من خصوم «آقبردي»!

يصف ابن إياس جريمة ابن رحاب قائلًا: «وكان علي بن رحاب ظالمًا، أدخل نفسه فيما لا يعنيه»!

أي أنه هو من جنى على نفسه..

والغريب أن ما نفهمه من كلام ابن إياس أن ابن رحاب قد تم تحذيره من قبل، وأن الأمير كرتباي الأحمر قد استدعاه من فترة وحذره من طول لسانه!

كرتباي الأحمر قصة في حد ذاته؛ فقد كان يسخر من السلطان محمد بن قايتباي أمام مماليكه ويقول: يحكمني ويحكم مصر اثنان: طفل وأمه!

وكان المؤرخ ابن إياس الحنفي يقول ما بدا له ويطلق لسانه في الحكام والمشاهير من أول السلطان نفسه وإلى أصغر مسؤول في الدولة، وهو من نقل لنا حكايات «آقبردي» و«كرتباي» ومحمد بن قايتباي وعلي بن رحاب.

وكأنه من المسموح أن ينتقد المماليك بعضهم البعض، وكذا المؤرخون والنخبة، أما أن يأتي واحد من أهل مصر مهما كانت شهرته ويدلي بدلوه في شأن من شؤون الحكم، فهذا مما لا يُسمح به أبدًا!

انقطعت أخبار علي بن رحاب تمامًا لسنة كاملة بعد تجريسه، بعدها نقل لنا ابن إياس خبر وفاته.

ترى هل مات نتيجة للحسرة والاكتئاب، أم من الضرب والإهانة والفضيحة على رؤوس الأشهاد؟

علم ذلك عند الله!

تحت قبة مدرسة السلطان «حسن»، التي نُهبت وتهدمت بعض أجزائها وظلّت مغلقة لعشرة شهور بعد فتنة «آقبردي»، كثيرًا ما يأتيني صوت ابن رحاب وهو يغني أو يبتهل وصوته يجلجل في جنبات القبة. علي بن رحاب الذي كانت كل جريمته أنه اختار أن يكون فنانًا حقيقيًّا ذا رأي حر، وليس مجرد ألعوبة يتسلَّى بها المماليك وحسب، ودفع حياته ثمنًا لاختياره هذا.

(القبة الضريحية بمدرسة السلطان حسن)

المسمار الأول في نعش المماليك!

جامع الأشرف برسباي هو أحد الكنوز المختبئة في شارع المعز، ولأنه يقع بين شارع الأزهر والصاغة، بين محلات العطارين وباعة البخور والعطور الشرقية، فغالبًا ما ننسى أننا في أحد أجزاء المُعز، وبالتالي فنادرًا ما يستوقفنا على الرغم من أننا نمر من أمامه باستمرار.

بُني هذا الجامع سنة ١٤٢٦م، وهي السنة ذاتها التي استولى فيها المماليك على جزيرة قبرص!

والحكاية أن القراصنة القبارصة قد اعتادوا الاستيلاء على سفن التجار المسلمين، وكان اقتصاد الدولة المملوكية معتمدًا على التجارة والرسوم التي كانت تُحصلها الدولة من التجار، وقرر الأشرف برسباي أن يُجهز حملة عسكرية ويحتل جزيرة قُبرص!

لم يتوقع الذين عاصروا الحملة أن يكون نجاحها باهرًا بهذه الطريقة، فقد اكتسحت الحملة قبرص بأكملها وعادت بغنائم مهولة وبضعة آلاف أسير قبرصي على رأسهم ملك قُبرص نفسه، الذي سيفتدي نفسه بعد ذلك ويرجع إلى جزيرته متعهدًا بدفع جزية سنوية للمماليك، أما الأسرى القبارصة فسيتم بيعهم في أسواق نخاسة القاهرة، ويصبحون جزءًا من التركيبة المصرية العجيبة!

كان «برسباي» حاكمًا مملوكيًّا كلاسيكيًّا، لم يشتهر بالعدل أو الظلم الفاحش، حاكمٌ مصري قروسطي عادي، من النوع الذي قد يسرق وينهب أحيانًا، ووارد أن يُعذِّب أو يقتل إذا لزم الأمر. وصحيحٌ أن الدعوة لغزو قبرص كانت باسم الجهاد في سبيل الله، لكن ذلك أمر معتاد طول العصور الوسطى التي هيمن فيها الدين على كل مناحي الحياة، والتي كانت كل الحروب فيها تُعلن باسم الله، سواء أكان الجيوش إسلامية أم مسيحية، وفي ظني أن «غزو» قبرص تحديدًا لم يكُن جهادًا بالمعنى المتعارَف عليه، يؤكد لنا ذلك أن المصادر التي عاصرته لم تنقل لنا أبدًا أن شيوخًا قد سافروا بعدها إلى قبرص لنشر الإسلام فيها، أو حتى أن مسجدًا قد أقيم هناك. ولم تكُن لدولة المماليك أطماع توسعية كبيرة أصلًا، فلم تتغيَّر حدودها كثيرًا طول تاريخها، وغاية الأمر أن الأشرف برسباي كان واعيًا تمامًا لفكرة الأمن القومي، حتى إنه قد جيَّش الجيوش من مصر والشام إلى قبرص ليذود عن أمن دولته التي يحكمها.

ومع ذلك، فمن المفارقات العجيبة أن الأشرف برسباي سيحتل مكانه في التاريخ باعتباره الرجل الذي دقَّ أول مسمارٍ في نعش دولة سلاطين المماليك، حين قرر احتكار التجارة الكارمية، أي تجارة التوابل

والبهارات، فقد كانت مصر محطة رئيسية في طريق التجارة العالمية، فقرر «برسباي» ألَّا يكتفي بالرسوم التي تفرضها الدولة على التجار فحسب، واحتكر تجارة جميع البضائع القادمة من الصين والهند، وعلى رأسها تجارة التوابل، بحيث يكون السلطان هو التاجر الوحيد للبهارات، وهو وحده من يبيع للتجار الأوروبيين. وهي تجارة بالغة الضخامة، ويشبه الأمر أن يحتكر اليوم تاجرٌ واحدٌ تجارة الشاي والقهوة للعالم بأكمله!

وصحيحٌ أن سياسة الاحتكار التي ابتدعها «برسباي»، وتبعه فيها كل السلاطين الذين تولوا الحكم بعده، قد حققت مكاسب مهولة للدولة، إلا أن عواقبها كانت وخيمة، فلم يقتصر الأمر على الاحتكار فحسب، بل اقترن كذلك برفع الأسعار لحدود جنونية، ما أثار كثيرًا من الأزمات السياسية بين السلطنة المملوكية والدول الأوروبية التي كانت تتدخل لحماية مصالح تجارها، وفي النهاية أدت سياسة الاحتكار المملوكية إلى تشجيع حركة الاكتشافات الجغرافية، واستطاع الأوروبيون الوصول إلى الهند، المصدر الرئيس للتوابل، عبر رأس الرجاء الصالح، من دون المرور في البحر الأحمر، أي من دون دفع أي ضرائب أو رسوم للمماليك، ما مكَّن أوروبا من الحصول على تجارة الشرق بربع الثمن الذي كانت تحصل عليه من قبل، وهو ما شكَّل ضربة قاصمة لاقتصاد دولة سلاطين المماليك، وعجّل من انهيار دولتهم بعد سنوات قليلة على يد العثمانيين.

(مدرسة الأشرف برسباي)

الولي والكلاب!

من المؤكد أنك قد مررت كثيرًا أمام زاوية أبي الخير الكليباتي من دون أن تلاحظها أو تشعر بمدى السحر الذي يمثله حضورها في قلب القاهرة، فمن ذا الذي قد يعبأ بزاوية صغيرة لا تكاد تُرى بجوار ضخامة جامع الحاكم بأمر الله؟! ومن يا تُرى «الكليباتي» هذا الذي ضمن لنفسه شهرة وخلودًا دائمين بدوام القاهرة عندما وجد لنفسه موضع قدم في القصبة العظمى التي نعرفها اليوم بشارع المعز؟!

والواقع أن أبا الخير الكليباتي هو أحد التجليات المدهشة للقاهرة، بكل جنونها وعبثيتها العصية عن الفهم أبدًا..

كان قصيرًا وأعرجَ، يتكئ على عصا ممتلئة بالشخاليل، مجذوبًا آخر من المجاذيب الذين يملؤون تاريخ القاهرة وحاضرها أيضًا، لم يكُن

أبو الخير يختلف عن أي مجذوب آخر سوى في شيء واحد: الكلاب!

كان يمشي في الشوارع والكلاب وراءه، إذا سار سارت معه وإذا توقف لم تتحرك من مكانها أبدًا حتى يأذن لها. أما إذا جاءه أحد المريدين يطلب منه قضاء مصلحة له بحق سِرِّهِ «الباتع»، فيأمره أبو الخير حينها أن يشتري رطلًا من اللحم المشوي ويطعم كلبًا من كلابه، بعدها سيُرسلُ الكلبَ معه ليقضي له ما يريده!

أما الكلاب، التي أخذ «الكليباتي» لقبه منها، فلم تكُن تُفارقه أيضًا، حتى في الجامع! وعندما حاول أحد المصلين أن ينهاه عن اصطحاب الكلاب إلى الجامع لأنها نجسة، رمقه أبو الخير بنظرة نافذة، ونهره قائلًا فيما يُشبه النبوءة: اذهب وإلَّا جَرَّسوكَ على ثور! بعدها بأيام قُبض على هذا الرجل نفسه لأنه شهد زورًا أمام القاضي، وأركبوه على ثور وجَرَّسوهُ في شوارع القاهرة ليُصبح عبرة لمن يعتبر!

وفي مرّة أخرى، أنكر عليه بعض القضاة دخوله المساجد بالكلاب، فقال له أبو الخير: هم أولى بالجلوس في المسجد منك؛ فإنهم لا يأكلون حرامًا، ولا يشهدون الزور، ولا يغتابون أحدًا، ولا يدخرون عندهم شيئًا من الدنيا، ويأكلون الرمم التي تضر رائحتها الناس!

وحين مات أبو الخير الكليباتي، شيَّعت جنازتَه جموعٌ غفيرة، وحملَ نعشَه الأمراءُ والقضاة والأكابر، وقرروا أن يدفنوه في المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه وسط كلابه قريبًا من جامع الحاكم بأمر الله، وأن يقيموا له ضريحًا ويبنوا عليه زاوية في أهم شارع في القاهرة، ولخمسمائة سنة بعدها لم يجرؤ إنسان أو يفكّر مجرد تفكير في أن يهدم هذه الزاوية أو يعيد استخدامها تهيبًا ممَّا يمكن أن يفعله أبو الخير الكليباتي بعد مماته!

ويشير المؤرخ النجم الغزي، في ترجمته لأبي الخير الكليباتي، إلى أن ناظر الدولة القاضي شرف الدين الصغير هو من قام ببناء الزاوية والقبة على قبر أبي الخير، أما ابن إياس فيذكر في تاريخه أن من أمر ببنائهما هو السلطان قنصوة الغوري نفسه، ما يعني أن صيت أبي الخير كواحد من كبار الأولياء الصالحين في زمانه قد بلغ السلطان ذاته.

والعجيب أن ثقات المؤرخين الذين عاصروا «الكليباتي» يتحدثون عنه بإكبار وإجلال عظيمين، معتبرين أن تصرفاته والكلاب التي لم تكُن تفارقه حال من أحوال الصوفية وعجائبهم التي لا يعيها عقل، أما عبد الوهاب الشعراني فيستفيض في طبقاته في الكلام عن كرامات أبي الخير الكليباتي، وكيف أنه كان يقضي يومه وهو واضع رأسه في حمام جامع الحاكم بأمر الله، وهو ما عدّه الشعراني إحدى كرامات «الكليباتي»!

على أي حال، فللأولياء في مصر سطوة حقيقية وإن كانت مستترة لا تُفصِح عن نفسها إلا بمقدار، وإدراك سطوتهم تلك ضرورة حتمية لمن أراد أن يفهم عالم القاهرة الأسطوري والعبثي جدًّا!

(زاوية أبو الخير الكليباتي)

في حوش مدرسة الغوري..
خفف الوطء!

العجيب أن أول ما يتبادر إلى ذهني إذا ما لاح لي طيفُ آخر سلاطين المماليك طومان باي هو ابنته!

جاء ذكر ابنة طومان باي في سطر واحد فقط وبشكل عابر في تاريخ ابن إياس الحنفي: «توفيت ابنة السلطان طومان باي الذي قُتل، وكان لها من العمر نحو ثلاث سنين، فحصل لها طربة (صدمة) على أبيها لما شُنق».

ومع أن طومان باي لم يحكم مصر سوى أربعة أشهر فحسب، فإنه كان حاكمًا مدهشًا بكل المقاييس، فقبل أن يخرج السلطان قنصوة الغوري بنفسه ليحارب العثمانيين في الشام، جعل ابن أخيه طومان باي نائبًا عنه في حكم مصر، وحين قُتل «الغوري» بعدها في مرج دابق، وتشتت جيش

المماليك أمام جحافل العثمانيين، كان من الممكن جدًّا أن يفرَّ طومان باي أو يُعلن ولاءه للعثمانيين كما فعل كثير من المماليك بالفعل، فقد كانت الظروف في مصر بالغة التردي، تفشّت الخيانة بحيث إن كثيرًا من أمراء المماليك راسلوا العثمانيين وارتموا في أحضانهم، وخزائن الدولة خاوية على عروشها، وفلول الجيش تبعثرت في كل مكان، ومعنويات الجميع صارت في الحضيض، فلم يسبق أن قُتل سلطان مملوكي في إحدى المعارك من قبل، والأسوأ أن جثة «الغوري» لم يتعرَّف أحد إليها من كثرة ما دهستها سنابك الخيول، ولم يكُن أحد ليلوم طومان باي لو قرر أن يستسلم ويوافق أن يحكم مصر كأحد الولاة العثمانيين.

ومع هذا كله، وافق طومان باي أن يصبح سلطانًا على مصر، على الرغم من أنه يُدرك تمامًا عاقبة ذلك، فكانت الشهور القليلة التي حكمها غاية في المثالية، كما لو كان همه الوحيد فيها أن يختتم حكم سلاطين المماليك بذكرى طيبة لا أكثر.

وحتى بعد أن هُزمت بقايا جيش المماليك مرّة أخرى في الريدانية (العباسية وحتى مصر الجديدة حاليًّا)، خاض طومان باي حرب عصابات ضد العثمانيين في القاهرة والصعيد والدلتا، إلى إن أسدل ستار النهاية أحد أصدقاء طومان باي المقربين، وهو شيخ العرب حسن بن مرعي؛ حيث قام شيخ العرب بتسليم صديقه السلطان إلى العثمانيين لقمة سائغة!

بعدها اعتُقل طومان باي في معسكر العثمانيين في امبابة سبعة عشر يومًا، وأهل مصر، طول هذه المدّة، يرفضون تصديق أن سلطانهم رهن الاعتقال، لكن السلطان العثماني سليم الأول قرر أن يقطع شك المصريين باليقين، فأعد موكبًا ضخمًا بدأ من معسكر إمبابة وامتد إلى ما نعرفه

اليوم بشارع المعز، واصطفت الجماهير على جانبي الطريق تحيي سلطانها وتدعو له، وحين وصل الموكب إلى باب زويلة، وأبصر طومان باي المشنقة متدلية من الباب، تيقَّن حينها أنها النهاية..

ترى هل كانت ابنته وسط الجموع؟ هل كان يحملها أحد من ذويها لتلقي نظرة الوداع على أبيها؟ أرأتهم وهم يضعون الحبل حول عنقه؟ هل أَصَمَّت أذنيها أصواتُ الجماهير الغفيرة التي كانت تقرأ الفاتحة ترحُّمًا على أبيها وهو يُشنق، أم أنها لم تشهد شنقه وإنما رأته وهو معلَّق في باب زويلة بعد شنقه لثلاثة أيام حتى فاحت رائحته؟

ما الذي رأته طفلة في الثالثة من عمرها وتسبب في موتها بعد أبيها بشهرين؟!

لن نعرف أبدًا..

ومع أن قنصوة الغوري كان قد جهَّز لنفسه مقبرة فاخرة، فإنه لم يُدفن فيها بعد ضياع جثته في مرج دابق، وكان من الطبيعي، والحال كذلك، أن يُدفن فيها طومان باي، ويبدو أن أهل الخير الذين أنزلوا طومان باي وغسَّلوه قد تحسسوا من دفنه في قبة الغوري العظيمة خوفًا من إثارة حفيظة العثمانيين، وآثروا أن يدفنوه في مكان مجهول في «الحوش الذي خلف مدرسة الغوري».

فإذا زرت يومًا مجموعة الغوري، فستعبر قطعًا على هذا الحوش، فخفف الوطء حينها فلعلك تخطو دون أن تدري على رفات السلطان طومان باي، آخر سلاطين المماليك، رحمه الله!

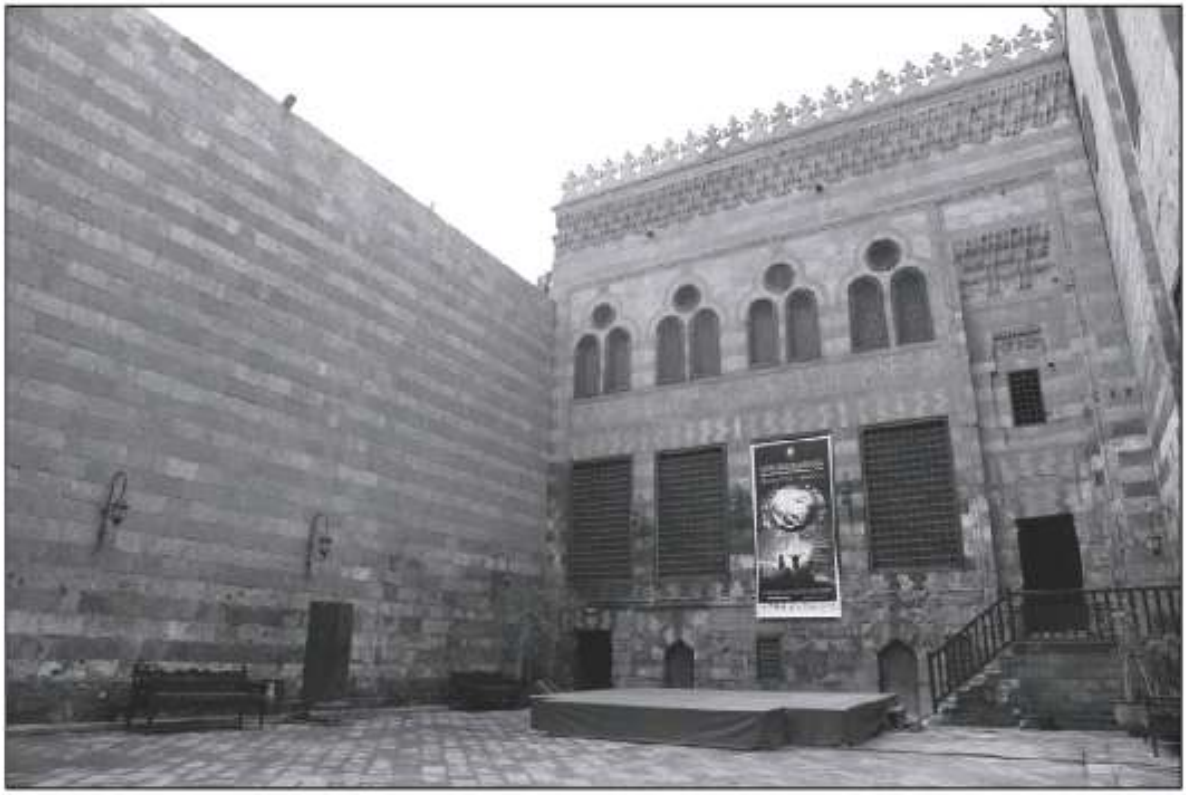

(حوش مدرسة الغوري)

خاير بك.. وابتكار «شك الباذنجان»!

على عكس أغلب المماليك، لم يكُن خاير بك من ملباي الجركسي مجهول النسب، فلم يمسه الرق ولم تتبادله أيادي النخاسين في أسواق الرقيق، كان الأمر أكثر بساطة من ذلك، فقد أهداه أبوه «ملباي» للسلطان «قايتباي» لكي يصبح أحد مماليكه!

ربما لهذا كان خاير بك يشعر دومًا أنه مختلفٌ عن باقي المماليك، وأنه بطريقة أو أخرى أفضل منهم وأعلى كعبًا، لقد كان خاير بك مملوكًا وكارهًا للمماليك في آن! قد يُفسر هذا ارتماؤه في أحضان العثمانيين وتآمره على المماليك.

وبعد أن شُنق طومان باي ودالت دولة سلاطين المماليك للأبد، أصبح خاير بك أول والٍ عثماني لمصر، واختار له السلطان العثماني سليم الأول لقبًا تشريفيًّا مضحكًا: ملك الأمراء!

وعلى الرغم من أن المؤرخ ابن إياس الحنفي يذكر أن السلطان سليم هو من أطلق عليه «خاين بك» بدلًا من «خاير بك»، فإني لا أظن أن «سليم» كان متمكنًا من اللغة العربية لهذه الدرجة، والأرجح أن هذه القافية مصرية صميمة أطلقها المصريون ليعبِّروا عن احتقارهم له ولخيانته.

وجد ملك الأمراء خاير بك نفسه محاصَرًا من كل جهة؛ فليس له سلطان حقيقي على بقايا المماليك ولا على جنود الحامية العثمانية، وعندما يشكو له الناس أن الجند يَسرِقون وينهبون ويخطفون النساء والصبية ثُمَّ يلقون بجثثهم في الشوارع بعد اغتصابهم، كان حل خاير بك أنه أمر بأن تُنهي الأسواق والمحال عملها مع مغيب الشمس، ومنع أي امرأة أو صبي أن يخرج من بيته بعد أذان المغرب!

لم يكُن خاير بك أبلهَ، فقد كان يعرف تمامًا كيف يراه الناس، مجرد خائن عديم القيمة باع سيده للعثمانيين، فكافأه أسياده الجدد بجعله حاكمًا صوريًّا لمصر؛ لذلك فلم يكُن أمام «خاير» سوى طريقة واحدة يُثبت بها لنفسه وللناس أنه مُمسكٌ بزمام الأمور، أن يستخدم القسوة المفرطة. حكاية خيار الشنبر قد توضِّح لنا الأمر..

قديمًا، كان خيار الشنبر يُستخدم في وصفات العطارة التقليدية كمليِّن، وعلى الرغم من أن خيار الشنبر كان رخيصًا جدًّا وقتها، فإن خاير بك قد قرر أن يحتكره، أي يصبح هو التاجر الوحيد له، وحدث بعدها أن قبض الجنود على أحد الأشخاص وفي حوزته قرنان من خيار الشنبر، وأحضروه لملك الأمراء لينظر في أمره، فحكم على الرجل المسكين بالشنق.. هكذا ببساطة!

وفي يوم آخر، قرَّر خاير بك أن يقتل كل كلاب الشوارع، فأمر المنادين أن يجوبوا شوارع القاهرة وحاراتها ويأمروا الناس بأن يقطعوا رؤوس الكلاب ويعلقوها على أبواب بيوتهم، ربما ليظل الجميع يذكرون أن رؤوسهم من السهل أن تُقطع كرؤوس الكلاب عند أقل هفوة يرتكبونها!

لقد كان خاير بك يستغل أي فرصة لكي يسحل ويقتل ويعذِّب خلق الله، معتقدًا أن ذلك هو ما سيفرض احترامه على شعب كامل يزدريه، بل إنه قد ابتكر طريقة جديدة ومرعبة للقتل: الخوزقة بالعرض، أي أن يتم إدخال الخازوق بالعرض في القفص الصدري للمحكوم عليه بالإعدام، ويتركوه ليموت ببطء، والأنكى أن خاير بك قد اختار اسمًا مرحًا لهذه العملية الشنيعة، فقد سماها «شك الباذنجان»!

كثيرًا ما نحبس شخصيات التاريخ في مشهد واحد فقط، ونظل واقفين عنده للأبد، تمامًا كما حُبس خاير بك في مشهد الخيانة على الرغم من أنه حكمَ مصر بعدها خمس سنين كاملة، والنتيجة أن التاريخ يتحوَّل إلى مجموعة من الصور الميتة المتناثرة، لا نستطيع أن نفهمها ولا أن نعي علاقتها بنا!

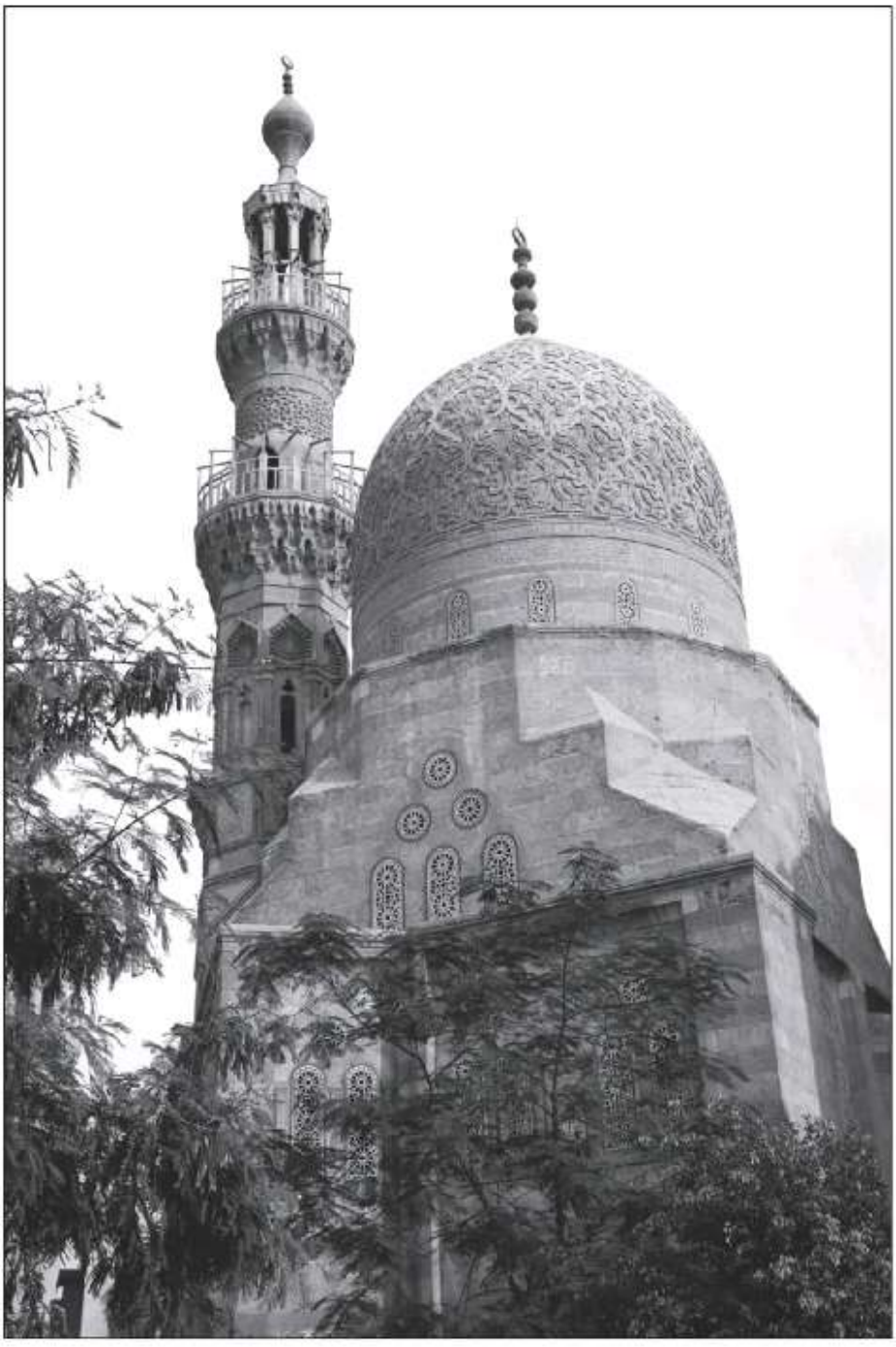

(مجموعة خاير بك)

ما فعلته السياسة بالتاجر الإيراني على باب زويلة!

استعرت نيران الصراع العثماني ـ الصفوي منذ أن أصبح سليم الأول سلطانًا للدولة العثمانية..

فالصفويون ينتسبون إلى الشيخ صفي الدين إسحق الأردبيلي، الذي كان سُنِّيًّا على الأغلب، وغيرّ خلفاؤه مذهبهم للتشيُّع كرد فعل على المظالم التي أرهقتهم بها الدول السنية المجاورة، وفيما بعد ستتم كتابة تاريخ الشيخ صفي الدين بأثر رجعي، لكي يصبح شيعيًّا من البداية، بل وسيتم اصطناع نسب شريف له، بحيث يغدو من ذرية الإمام موسى الكاظم، وترجع أهمية هذا النسب المختلَق إلى أمرين، الأول: أن الانتساب إلى آل البيت سيجعل من الصفويين أئمة شرعيين بحكم نظام وراثة الإمامة الشيعي، والأمر الثاني: أنه كان ثمة حكاية تاريخية

رائجة تقول إن الحسين بن علي بن أبي طالب قد تزوج من بنت يزدجرد الثالث، آخر أكاسرة الفرس قبل الفتح الإسلامي، وكان الفرس يؤمنون بالحق الإلهي لملوكهم، أي أن ملوك الفرس معيَّنون من قِبَل الله، وبالتالي فإن أبناء الحسين وأحفاده من ابنة يزدجرد هم المستحقون لحكم بلاد فارس. وبهذا النسب الذي ادعاه الصفويون، اكتسبوا شرعيتين معًا: شرعية إسلامية وشرعية فارسية لحكم إيران!

وفي وقت لاحق، تحوَّل الصفويون من مجرد أسرة دينية صوفية تعتنق المذهب الشيعي الاثنا عشري، ولها أتباع ومريدون من القبائل المجاورة، إلى حركة سياسية تهدف إلى الحكم وإلى إقامة دولة شيعية، ومع نجاح إسماعيل الصفوي في تحقيق هذا الهدف، على أنقاض دولة سنية هي دولة الشاة البيضاء (الآق قوينلو)، مثَّل هذا للدولة العثمانية الفتية تحديًا بالغًا، خاصة بعد أن فرض الصفوي على أهل إيران اعتناق المذهب الشيعي قسرًا، وكان أغلب أهل إيران سُنِّيِّي المذهب حتى ذلك الوقت.

وبعدها، تمكَّن الشاه إسماعيل الصفوي من ضم العراق بكل ما يحويه من مراقد ومزارات شيعية مقدسة، تمثل قيمة روحية كبيرة للشيعة، وأصبح الصفويون الآن، وقد ملكوا العراق، مجاورين للدولتين السنيتين الكبيرتين، الدولة المملوكية في مصر والشام، والدولة العثمانية في الأناضول، وبدا الصدام وشيكًا.

كانت الدولة المملوكية تلفظ أنفاسها الأخيرة أيام السلطان الغوري، الذي لم يكُن قادرًا على الدخول في صدام عسكري مع الصفويين، فآثر البقاء على الحياد بين العثمانيين والصفويين، وإن رأى في العثمانيين خطرًا

أكبر على الدولة المملوكية من خطر الصفويين، وعلى العكس من ذلك كان السلطان سليم الأول قد وصل للحكم للتوِّ، وقد هاله انتشار الدعاة الصفويين في تركيا، الذين عملوا على نشر المذهب الشيعي في الأناضول.

وحتى بعد أن تمت المواجهة العسكرية الأولى بين العثمانيين والصفويين، لم يتغيَّر الأمر كثيرًا بعد الهزيمة الثقيلة التي مُني بها الصفويون على يد العثمانيين في موقعة تشالدران سنة ١٥١٤م، بل إن أحد الأسباب التي ادعاها سليم الأول لدخول مصر هي أن المماليك يناصرون إسماعيل الصفوي، أو «الصوفي»، كما كانت تسميه المصادر القديمة، فقد استفتى السلطان سليم الأول شيخَ الإسلام زمبلي علي جمالي قائلًا: «إذا أراد قائد إسلامي (يعني نفسه) استئصال شأفة الملحدين الفُرس (يقصد الصفويين)، بمساعدة جماعة هم أيضًا يعانون من طاغية (يقصد المصريين)، ومُنع هذا القائد من ذلك، فهل يكون مباحًا قتل هذا الطاغية واستباحة أملاكه؟»، فأجاز له الشيخ زمبلي ذلك. واستند «سليم» إلى تلك الفتوى وفتاوى أخرى بالمعنى ذاته لتبرير قتاله المماليك ودخوله إلى مصر.

وحفظ لنا تاريخ ابن إياس أن ملك الأمراء خاير بك قد أمر في أحد أيام جمادى الآخرة سنة ٩٢٤هـ بتلاوة ثماني ختمات للقرآن الكريم في مقام الإمام الشافعي ومقام الإمام الليث ومقام السيدة نفيسة ومقام عمر بن الفارض ومقام أبي الحسن الدينوري ومقام الشيخ أبي الخير الكليباتي وفي الجامع الأزهر ومقياس النيل.. هذه الختمات، في تلك الأماكن المباركة التي اشتُهرت بإجابة الدعاء أيام خاير بك، كانت بهدف واحد: أن يهدي القرّاء الثواب للسلطان «سليم»، لعله ينتصر ببركة الختمات الثماني على إسماعيل الصفوي!

كما حفظ لنا ابن إياس أيضًا حكاية التاجر العجمي (الإيراني) الذي وصل إلى القاهرة ومعه بضائع ثمينة، وفور أن علم خاير بك بوصوله طمع في بضائعه وقرر أن يستولي عليها، فقبض على التاجر واتهمه بأنه جاسوس لإسماعيل الصفوي، وصادر كل ما معه، ثُمَّ أمر بشنقه على باب زويلة!

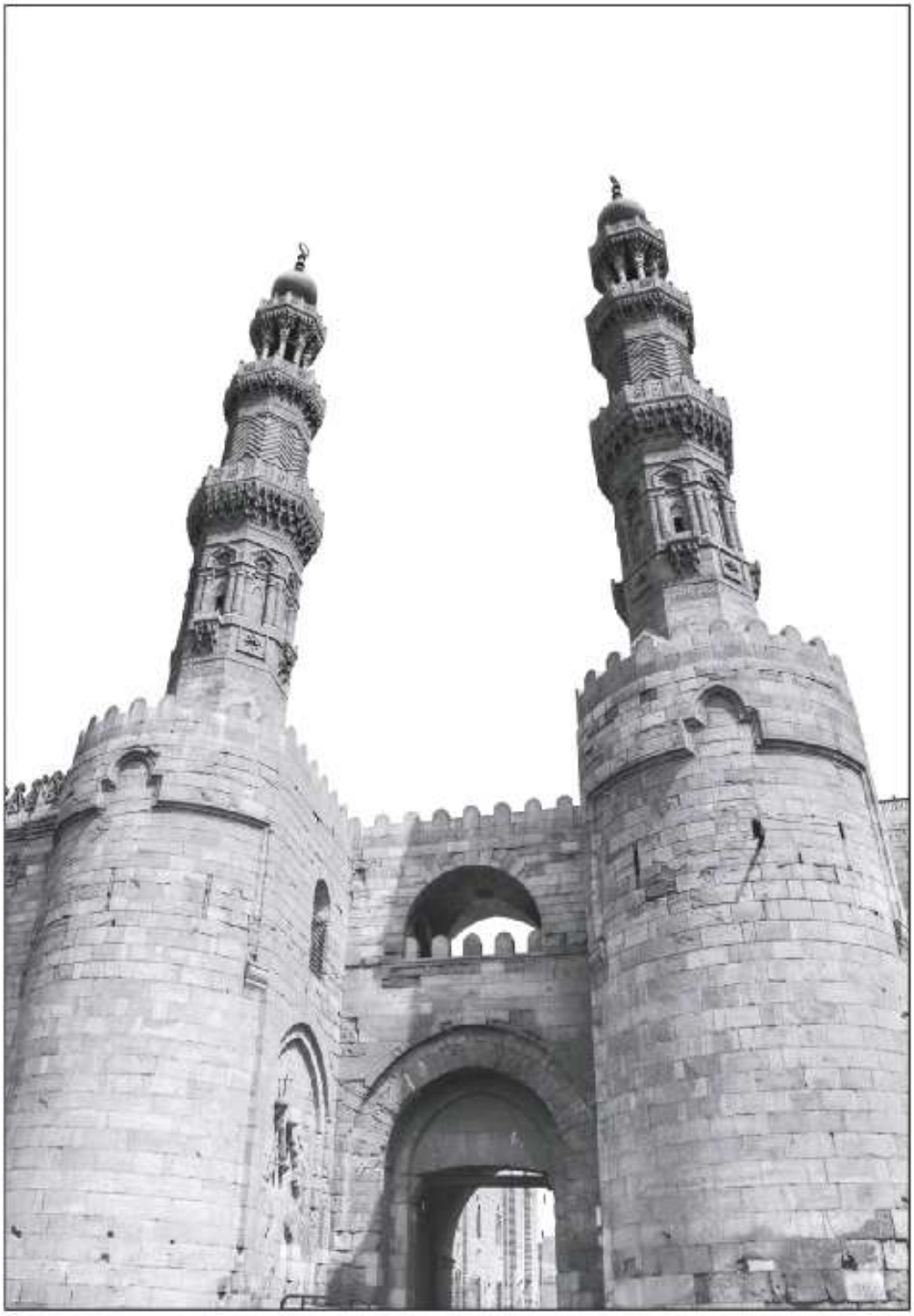

(باب زويلة)

الأنبياء وارض مصر

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

محرقة الصالحية!

في سنة ١٥٢١م، استطاعت الجيوش العثمانية أن تجتاح بلجراد وتضمها للإمبراطورية العثمانية، بعدها أرسل السلطان سليمان القانوني رسله لجميع الولايات العثمانية يبشرها بـ«الفتح المبين».

عندما وصلت البشرى إلى ملك الأمراء خاير بك، أمر أن تتزين القاهرة سبعة أيام بلياليها احتفالًا بالفتح، وسارع المصريون إلى الاحتفال بالانتصار على أعداء الله الكفار بطريقتهم المفضلة: السُّكْر والعربدة آناء الليل وأطراف النهار!

ووسط تلك الأجواء الاحتفالية، خرج ثلاثة مسيحيين إلى الدرب الأحمر لكي يحتفلوا مع الناس، فسكروا حتى الثمالة، وعلا صخبهم وضجيجهم، وكان يسكن بجوارهم قاض اسمه بشر الحنفي.

في أيام المماليك والسنين الأولى من حكم العثمانيين، كان هناك أربعة قضاة كبار في مصر، قاض لكل مذهب من المذاهب الأربعة، وكل قاض منهم له نواب. كان الشيخ «بشر» واحدًا من نواب القاضي الحنفي.

بعث «بشر» بأحد خدمه لكي يطلب من السكارى أن يخفضوا من صخبهم.. وعندما لم يستجيبوا للخادم، قرر الشيخ «بشر» أن ينزل لهم بنفسه. فقد كان لمنصب القاضي هيبته البالغة التي تجبر الجميع على احترامه وتوقيره؛ لذلك فقد كانت دهشة «بشر» عظيمة عندما سخر السكارى منه، وعندما نهرهم، سبَّ السكارى الثلاثة دين القاضي!

حينها لم يجد «بشر» بُدًّا من إرسال بضعة جنود ليقبضوا على السكارى وينقلوهم إلى محكمة الصالحية، أهم محاكم مصر وقتها.

انتشر الخبر في أرجاء القاهرة، وتجمَّع المئات داخل المحكمة وخارجها في انتظار حكم أكابر قضاة مصر على المسيحيين الثلاثة، كان الحكم محسومًا، أجمع القضاة على أن الثلاثة كانوا في حالة سُكر بيِّن وبالتالي فليسوا مسؤولين عن أي شيء قالوه أو فعلوه. شعر بشر الحنفي أنه قد أهين إهانةً بالغةً، فوقف أمام قضاة المذاهب الأربعة وأخذ يكبِّر اعتراضًا على الحكم، فهاجت الجموع ووقفوا يكبِّرون معه ويشتمون القضاة، وكادوا يرجمونهم. لقد رأت الجماهير أن حكم الشرع ليس شرعيًّا بما فيه الكفاية!

عندما بدا للجنود العثمانيين الذين كانوا يحرسون المحكمة أن الأمر سيستفحل، قرروا أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم وفقًا لحسهم الأمني، فأخرجوا المساجين الثلاثة خارج المحكمة، ثم قتلوهم وقطَّعوهم إربًا!

للدِّقَّة قطَّعوا اثنين فحسب، أما الثالث فقد أعلن إسلامه أمام الناس فاستحرموا قتله!

في تلك اللحظة، كانت الجموع الغفيرة قد وصلت إلى أقصى درجات الجنون، اختطفوا أشلاء القتلى وأحرقوها بالنار، وأسقطوا أسقف المحلات الخشبية المجاورة لكي يزيدوا من استعار النيران، ولم يكفوا حتى تأكدوا أن أعداء الله قد انتهوا تمامًا وتحولوا إلى رماد.

لا تتعلق هذه المذبحة بتديُّن المصريين بقدر ما تتعلَّق بالكيفية التي يتفاعل بها الناس مع الدين وكيف يصنعون منه نسختهم الخاصة التي تُرضي احتياجاتهم ورغباتهم مهما كانت عنيفة ولا عقلانية، ومهما كانت مختلفة عن الدين الرسمي بصيغته المحفوظة في الكتب، والناتج هو مزيج مدهش اسمه الدين الشعبي. هذا الدين الشعبي بسماحته الفائقة أحيانًا ودمويته البالغة أحيانًا هو ما يجب أن يكون حاضرًا في أذهاننا باستمرار ونحن نقرأ التاريخ، باعتباره المحرك الخفي لأغلب وقائعه.

إذا زرت «الحسين» يومًا، فجرِّب أن تتسكع قليلًا في الصاغة، في آخرها ستكون بقايا المدرسة الصالحية عن يمينك، فتوقَّفْ قليلًا وتذكَّر أن هنا بالضبط كانت المحرقة، هنا مارس المصريون الدين بطريقتهم الخاصة!

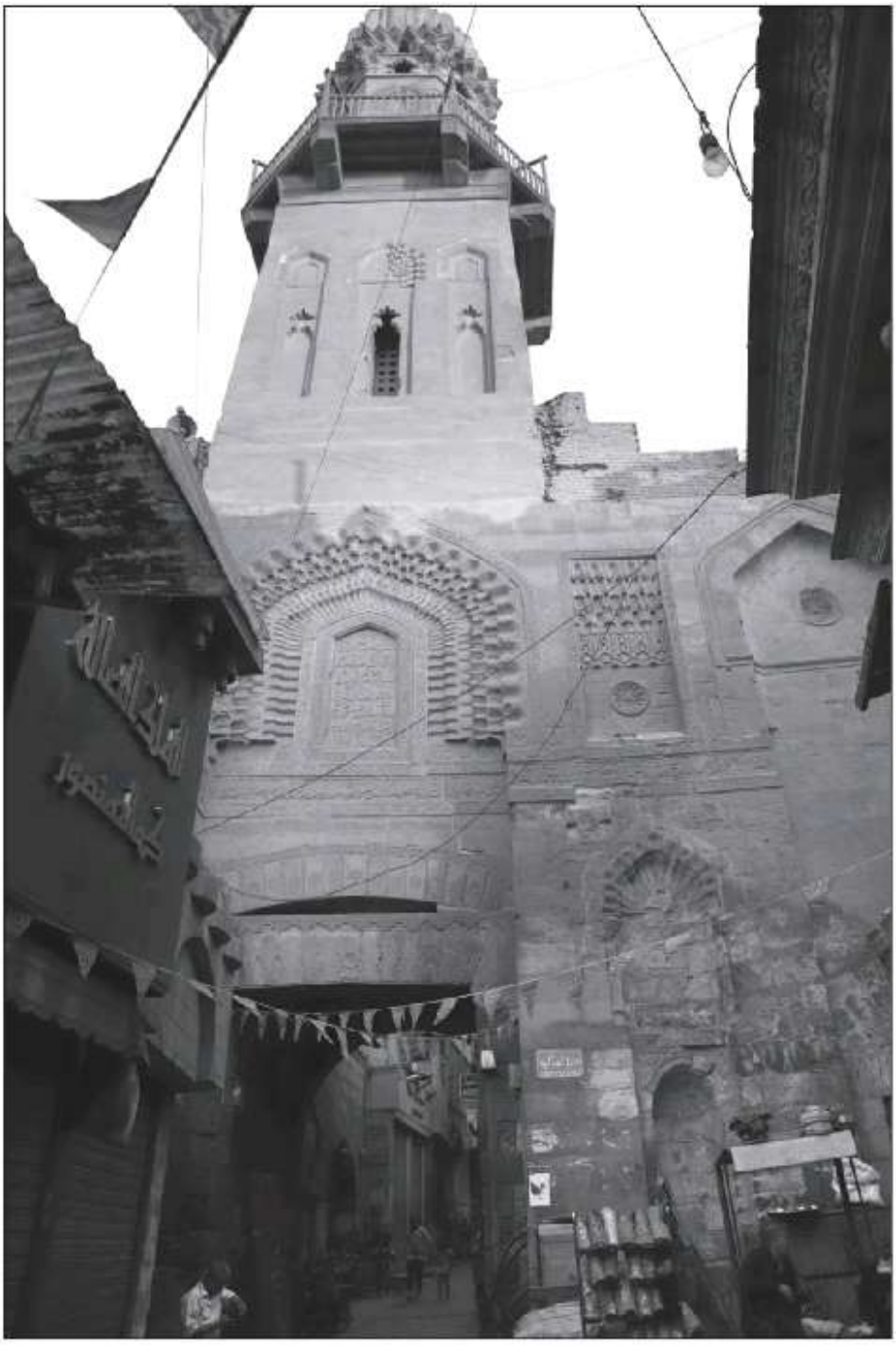

(المدرسة الصالحية)

المحمودية.. وأول اغتيال بالرصاص في تاريخ مصر!

على الرغم من أن جامع المحمودية يقف على مرمى حجر من مدرسة السلطان «حسن»، فإنني أراهن أنك لم تدخله من قبل!

بالنسبة لي، لم أدخل جامع المحمودية إلا مؤخرًا وأنا أقدِّم قدمًا وأُؤخِّر الثانية، على الرغم من أني طالما مررت من أمامه لسنوات طويلة.

كنت أظنُّ وقتها أن السبب هو أن عظمة مدرسة السلطان «حسن» تعمي الأبصار عن النظر إلى ما سواها، وأن في النفس غُصَّة مستترة من محمود باشا، والي مصر العثماني، الذي تجرأ وأراد أن يناطح بمسجده مدرسة السلطان «حسن»!

إلى أن عرفت أن هذا ليس السبب الوحيد..

في صبيحة أحد أيام سنة ١٥٦٦م، وصل إلى الإسكندرية موكب الحاكم العثماني الجديد «محمود» باشا، كان في استقباله، كما جرت العادة، أكابر البلد ومعهم الهدايا، ومن بينهم كان شيخ العرب الأمير محمد بن عمر، أحد أجداد شيخ العرب همام..

اصطحب محمد بن عمر معه خمسين ألف دينار ومركبًا محمَّلًا بخيرات الصعيد ليقدمها للباشا الجديد، قبِلَ «محمود» باشا هدية أمير الصعيد وأمواله، وبعدها أمر بصلبه!

ومع ما انطوى عليه تصرُّف الباشا من غدر ووحشية جامحة، فإن العقل المصري قد برر تصرفه باعتبار أن «الغربال الجديد له شدّة»، وأنه إذا «ضُرب المربوط يخاف السائب»..

ولكن ما اتضح بعدها أن دموية «محمود» باشا طبعٌ أصيل فيه وليست مجرد شدّة غربال؛ فقد كان ينهب أموال الناس ليلبس أفخم الثياب وليأكل ويشرب في أطباقٍ وأوانٍ مصنوعة من الذهب والفضة، وكان عندما يجلس في ديوانه ليحكم بين الناس، يُنصت لـ«الصوباشي» (مسؤول الأمن) وهو يذكر تهمة كل متهم، والباشا يتابع بعينيه ولا يتكلم، فقط يُحرِّك مروحته بتأفف، فيفهم «الصوباشي»، من حركة المروحة، حكم الباشا: إما الصلب وإما الشنق وإما التوسيط، الذي يعني قطع المتهم إلى نصفين من وسطه!

وفي خضم هذا البلاء، قرر «محمود» باشا أن يبني جامعه!

لا تُسعفنا المصادر التاريخية بأخبار ما شعر به المصريون وهم يرون الباشا يبني جامعه من سرقة أقواتهم، تُرى هل سخروا منه أم كالوا له قبيح الشتائم كما تعودوا دائمًا مع حكامهم؟! لا نعرف على وجه اليقين..

كل ما نعرفه أن «محمود» باشا لم يزد حكمه على سنة وبضعة أشهر، قُتل بعدها رميًا بالرصاص وسط موكبه وهيلمانه دون أن نعرف إلى اليوم مَن الذي قتله، ليدخل التاريخ بذلك كأول حاكم لمصر يُقتل رميًا بالرصاص!

وبعدها دُفن الباشا في جامعه.. المحمودية!

* * *

لكل مكان مذاقه وروحه ونَفَسُهُ الخاص، قد ترتاح في مسجد ولا تحتمل أبدًا أن تقترب من مسجد آخر من دون أن تعرف السبب، روح الأماكن هي حكاياتها وذكريات مَن مرُّوا بها، من دون أن تستشعر هذه الروح ستغدو الأماكن كلها مسخًا واحدًا عديم الشكل، مجموعة من الحجارة القديمة لا أكثر، مجرد صورة باهتة على «كارت بوستال» قديم!

(جامع المحمودية)

الدعوة لهداية أهل مصر من الضلال في جامع المؤيد شيخ!

الحكايات كالسمك، تأكل الحكاية الكبيرة أختها الصغيرة وتقضي عليها تمامًا..

فلا نهاية للحكايات الصغيرة المدهشة التي طواها النسيان بسبب طغيان الحكايات الكبيرة، بحيث أصبح لكل مكان عددٌ من الحكايات المكررة، نجترُّها مرّةً بعد الأخرى ونظن أننا قد امتلكنا ناصية الحكي بهذه الطريقة، على الرغم من أن حكايات المكان الواحد بعدد أنفاس البشر الذين زاروه وضفَّروا حكاياتهم بحكاياته.

من تلك الحكايات الصغيرة: واقعة حدثت في جامع المؤيد شيخ سنة ١٧١١م، وغالبًا لم تسمع بها من قبل.. ولكي نفهم ما حدث في

جامع المؤيد، يجب أن نعرف أولًا أصل الحكاية الذي بدأ في إسطنبول قبلها بنحو مائة سنة.

فمع ظهور بوادر الضعف والانحلال في الدولة العثمانية، ظهر واعظ في إسطنبول اسمه محمد أفندي قاضي زادة، وبدأ يدعو إلى تنقية الدين من التصوُّف والبدع، وأيضًا من العلوم العقلية؛ فقد كان يرى أن الانشغال بدراسة ما سوى العلوم الشرعية هو سبب البلايا التي تعانيها الدولة العثمانية!

أصبح قاضي زادة أشهر واعظ في إسطنبول، ووصل نفوذه إلى السلطان العثماني مراد الرابع، فأخذ «زادة» يعيِّن رجاله في المناصب المهمة في الدولة، مع التأكيد أنه لم يكُن أكثر من واعظ، وكل كتاباته تقريبًا كانت ترجمات لكتب ابن تيمية الذي مات قبله بنحو ثلاثمائة سنة، وكانت إسطنبول تمتلئ بمن هم أعلم من قاضي زادة بكثير، لكنهم لم يهتموا بالرد عليه ومواجهته، أو لعلهم قد توجسوا خيفة من نفوذ قاضي زادة السياسي وشعبيته الجارفة.

وحتى بعد وفاة قاضي زادة، انتشرت أفكاره على يد تلاميذه في كل مكان، وكان على رأسهم شخص عربي الأصل، اسمه محمد الأسطواني، فرّ من الشام إلى إسطنبول هربًا من جريمة قتل اتُّهم بها، وأصبح أشهر واعظ في حركة قاضي زادة. وعندما زاد نفوذ «الأسطواني» لدرجة أنه قرر أن يهدم جميع تكايا الصوفية في إسطنبول، وأن يعقد مجالس استتابة لجميع الصوفية ليعلنوا فيها توبتهم وتراجعهم عن أفكارهم وإلا قتلهم، وأصبحت إسطنبول على مشارف حرب أهلية، هنا فقط استفاقت الدولة إلى خطورة اللعب بالنار، وقررت أن تُنهي الموضوع،

فقامت بنفي «الأسطواني» وكبار واعظي الحركة إلى قبرص، فانتهت حركة قاضي زادة بهذه الطريقة، أما على مستوى الأفكار، فالأفكار لا تنتهي بالنفي أو حتى بالموت.

بهذا فقط، يمكننا أن نفهم ما حدث في مصر ذات يوم من أيام شهر رمضان سنة ١٧١١م، حين وصل إلى القاهرة واعظ تركي وأخذ يلقي دروسه في جامع المؤيد شيخ، ويبدو أنه كان يُحسن فنون الخطابة، ففي خلال بضعة أيام أصبح جمهوره كبيرًا جدًّا، وازدحم جامع المؤيد بالحضور، وأغلبهم من الجنود الأتراك المنتسبين إلى «الوجاقات»، أي الحامية العسكرية العثمانية في مصر.

عندما اطمأن الواعظ لكثرة أتباعه، قرر أن يدخل في صلب الموضوع فورًا، فأخذ ينتقد تصرفات أهل مصر، وأفعال الدراويش والصوفية، وأن المصريين يُقيمون الأضرحة والقباب لمن يعتقدون فيهم الصلاح، كما يؤمنون بكراماتهم ومقدرتهم على معرفة الغيب!

والواقع أن جموع المصريين كانت تعتقد ذلك بالفعل، ليس فقط على مستوى البسطاء وعوام الناس، بل كان ذلك هو الرأي المعتمد لكبار علماء الأزهر!

ولذلك، فعندما نقل أحدُ مَن حضروا مجالس المؤيد كلام الواعظ التركي للشيخ أحمد النفراوي والشيخ أحمد الخليفي ـ وكلاهما من كبار شيوخ الأزهر ـ رفضا كلامه جملةً وتفصيلًا، وأصدرا فتوى شرعية تؤكد أن للأولياء كرامات في حياتهم وبعد مماتهم، وأن أولياء الله الصالحين يعرفون الغيب ويطَّلعون على اللوح المحفوظ، ومَن ينكر ذلك كافرٌ وحلالٌ قتله!

وفي اليوم التالي، وصلت فتواهما للواعظ التركي، فهاج وماج، وأعلن أنه سيذهب بنفسه لقاضي القضاة لكي يثبت له خطأ تلك الفتوى، وأن مشايخ الأزهر هم الزنادقة. وفورًا قام معه مئات من أتباعه ليذودوا معه عن حياض الدين!

فوجئ القاضي بهذه الجموع تحاصر ببيته فأخذه الرعب، خاصة أن محاولاته للتسويف وتأجيل النظر في الأمر لم تُجدِ معهم، فاضطُرَّ إلى أن يُصدر فتوى أخرى مضادة لفتوى شيوخ الأزهر!

وفي اليوم التالي، وصلت جماهير الواعظ إلى جامع المؤيد في موعدهم المعتاد، فلم يجدوا الواعظ التركي، فثارت ثائرتهم، وأسرعوا إلى بيت القاضي وصعدوا به قسرًا إلى القلعة؛ حيث طلبوا من الباشا نفسه أن يُفرج عن الواعظ وأن يستدعي شيوخ الأزهر أمامه ليناظرهم في مجلسه.

فلم يكُن أمام الباشا إلا الموافقة على مطالبهم تهدئةً لثورتهم، فأصدر مرسومه بأن يرجع الواعظ لإلقاء دروسه في جامع المؤيد، على أن يتم ترتيب مناظرة بينه وبين علماء الأزهر لاحقًا.

ولأن الباشا غالبًا ما كان واعيًا بما فعلته حركة قاضي زادة ومن بعده محمد الأسطواني في إسطنبول؛ لذلك فقد قرر أن يتصرَّف بسرعة قبل أن يستفحل الأمر، فأصدر مرسومًا آخر بالقبض على الواعظ التركي ونفيه خارج مصر، وقبض على أتباعه فحبس بعضهم ونفى الآخرين، ونامت الفتنة إلى حين..

ولم يحفظ لنا هذه الحكاية سوى جامع المؤيد شيخ؛ فهو الشاهد الوحيد الباقي على الواعظ التركي الذي كان صوته يجلجل طامعًا أن يكون سبب هداية أهل مصر من الضلال الذي يعيشون فيه!

(جامع المؤيد شيخ)

الكخيا.. عندما ينقلب السحر على الساحر!

هناك أماكن في القاهرة تكسر على الفور التقسيمات الساذجة التي نضعها من دون وعي للآثار والتاريخ، مثل أن الآثار الإسلامية ليس لها وجود سوى في محيط شارع المعز، أو أن الكنائس الأثرية ليست موجودة سوى في مصر القديمة، أو أن منطقة وسط البلد مثلًا لم يكُن لها أي وجود قبل الخديوي إسماعيل.

يقضي تصوُّر سطحي كهذا على إحدى الصفات المدهشة في القاهرة: طبقات التاريخ المتراكمة بعضها فوق بعض في المكان ذاته.

خذ عندك جامع الكخيا مثلًا..

بُني هذا الجامع منذ ما يزيد على ٢٥٠ سنة، وعلى الرغم من أنه

موجود في قلب وسط البلد، فإنه أقدم من وسط البلد التي نعرفها بمائة سنة على الأقل!

عندما دخل السلطان العثماني سليم الأول إلى مصر مُنهِيًا الدولة المملوكية ومحوِّلًا مصر إلى ولاية عثمانية، أسس لنظام حكم ثلاثي يضمن به استقرار الوضع في مصر على الدوام، فجعل حكم مصر يتم بصورة تشاركية بين الوالي العثماني وقادة الوجاقات (الفرق العسكرية) العثمانية، وبقايا المماليك الموجودين في مصر، بطريقة تضمن استحالة أن يتمكَّن أحد الأطراف الثلاثة من الاستقلال وحده بحكم مصر.

ومع مرور الوقت وتراخي قوة الدولة العثمانية، فقد هذا النظام كفاءته، وأصبح المماليك يستطيعون الانتساب إلى الوجاقات العسكرية والترقِّي في مناصبها كالعثمانيين تمامًا، وصار نفوذهم بالغ القوة، لدرجة أنهم يستطيعون عزل الوالي العثماني ذاته إذا خالف مصالحهم، وأصبح كبير المماليك في مصر، الذي يحمل لقب «شيخ البلد»، هو الحاكم الحقيقي لمصر.

وكان لكل وجاق من الوجاقات رئيس ومجموعة من النواب، أما نائب الرئيس فكان يطلق عليه «كتخدا».

وهكذا نفهم أن الذي بنى هذا المسجد كان نائبًا لرئيس أحد الوجاقات، وكان اسمه عثمان كتخدا القازدغلي، ويبدو أن كلمة «كتخدا» كانت ثقيلة على لسان المصريين، فحوَّلوها لكلمة أسهل، هي «كخيا»!

كان عثمان كتخدا واحدًا من أهم أمراء المماليك في مصر، في يوم افتتاح جامعه سنة ١٧٤٧م، امتلأ الجامع عن آخره بأكابر البلد الذين حضروا أول صلاة جمعة فيه. وكان من الممكن جدًّا أن يقضي حياته معززًا مكرَّمًا

على المنوال ذاته، لولا أنه طمع في الأكثر من هذا، منصب شيخ البلد، وكانت هذه تحديدًا هي بداية النهاية الدرامية العنيفة لعثمان كتخدا.

الذي حصل أن مملوكًا اسمه صالح القاسمي طلب من عثمان كتخدا أن يتوسَّط له عند شيخ البلد محمد بك قطامش كي يرقِّيَه، رفض شيخ البلد وقال بصلف إن صالح القاسمي لن يترقَّى أبدًا طول حياته، هنا قرر «صالح» أن يقتل شيخ البلد شخصيًّا. من جانبه، شجعه عثمان كتخدا بعد أن رأى أنها فرصة مناسبة للتخلُّص من شيخ البلد وأن يحل هو مكانه، واتفق «كتخدا» مع الوالي العثماني «باكير» باشا على تفاصيل عملية الاغتيال.

الخطة كانت أن يختلق الوالي موضوعًا ما، ويطلب من شيخ البلد وقيادات المماليك والوجاقات أن يقوموا بعمل «جمعية»، أي اجتماع للتشاور والمناقشة، في هذا الاجتماع سيتم اغتيال شيخ البلد وكبار رجاله، وهو ما تم بالفعل، قُتل شيخ البلد محمد بك قطامش ومماليكه، وفي قلب المعمعة قُتل أيضًا عثمان كتخدا القازدغلي، الذي وقع في شر أعماله!

في هذه اللحظة، وجد صالح القاسمي ومماليكه قادة المماليك كلهم مقتولين أمامهم، سكروا بنشوة النصر المفاجئ، وشعروا أن الطريق قد أصبح مفتوحًا أمامهم لحكم مصر، فقطعوا رؤوس القتلى، وأسرعوا بها إلى مدرسة السلطان «حسن» ليتحصَّنوا فيها، ولكي يُرهبوا أي إنسان يحاول الهجوم عليهم، سلخوا رؤوس المماليك وحشوها تبنًا ووضعوها على بسطة جامع السلطان «حسن»!

صحيح أنه لا أمان لهذه الدنيا! من كان يصدق أن رأس الكخيا عثمان القازدغلي المسلوخ والمحشو بالتبن هذا، كان صاحبه يقف بكل

عظمة قبلها بسنتين فقط، يفتتح جامعه وسط أكابر البلد، وكان ساعتها، كما يذكر عبد الرحمن الجبرتي، «وافر الحرمة مسموع الكلمة»!

ما حدث لأبي الشراميط في الخيامية!

كان «الالتزام» هو الطريقة التي استخدمتها الدولة العثمانية لكي تضمن حقوقها مقدمًا..

صحيح أن العثمانيين ليسوا هم من ابتكروا نظام الالتزام، لكنهم مَن طبقوه على نطاق واسع في مصر حتى ارتبط الالتزام بالحكم العثماني. ببساطة، كانت الدولة تقوم بعمل مزاد سنوي على الأراضي الزراعية في جميع قرى مصر وبلداتها، والذي يرسو عليه مزاد قرية ما «يلتزم» بدفع ضرائبها مقدمًا للحكومة في بداية العام، وذلك بدلًا من أن تقوم الدولة بجمع الضرائب بنفسها. وهو ما يعني أن الحكومة كانت تضمن جمع المبالغ المستحقة على الأراضي الزراعية، وبعدها يقوم الملتزمون بجمع الضرائب من الفلاحين بطريقتهم الخاصة.

وصحيح أيضًا أن نظام الالتزام راعى في بدايته حماية الفلاحين من عبث جباة الضرائب الذين كانوا يُغالون في تقدير الضرائب المقررة على الأراضي الزراعية، وكانت الدولة تشترط على الملتزمين أن يحافظوا على البلاد التي تحت أيديهم ويعاملوا أهلها بالرحمة والعدل، إلا أنه سرعان ما تم تجاهل ذلك كله، وأصبح يوم نزول الجباة إلى قرية من القرى أكثر أيام الفلاحين شقاءً ورعبًا، فمن نافلة القول أن نذكر قسوة الوسائل التي كان يستخدمها الملتزمون؛ فلقد كان الضرب والحبس والتخويف شائعًا، وكثيرًا ما كان يتم القبض على أبناء الفلاحين حتى يسدد ذووهم ما عليهم، وقد يُضطر الفلاحون للاقتراض بالربا الفاحش، أو لبيع محاصيلهم وبهائمهم بسعر بخس لكي يتمكنوا من سداد الضرائب، خاصة أن الملتزمين قد استحدثوا كثيرًا من الضرائب الإضافية؛ فعلى سبيل المثال كان الملتزمون يفرضون على الفلاحين أن يقدموا لهم ولموظفيهم واجب الضيافة من خيرات الريف، ومع الوقت تحوَّل واجب الضيافة إلى ضريبة رسمية وأصبحت تسجَّل في الدفاتر الرسمية تحت اسم معبِّر جدًّا، هو «البرَّاني»!

كان مجموع تلك المبالغ التي تتم جبايتها من الفلاحين هو ما يُعرف رسميًّا بـ«الخزينة السلطانية»، التي يتم إرسالها سنويًّا إلى إسطنبول كرمز للولاء للسلطان والخضوع للدولة العثمانية. أما الفلاحون فكانوا يطلقون عليها «مال السلطان»، وكان المثل الشائع بينهم أن «مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم»!

كان أغلب الملتزمين من المماليك الذين حققوا ثروات ضخمة من وراء التزاماتهم، باعتبار أن المبالغ التي يجمعونها من الفلاحين كانت تفوق بمراحل المبالغ التي دفعوها إلى خزانة الدولة، وكان من المعتاد

أن يقوم كل أمير مملوكي بتوزيع بعض من ريع التزامه على «أولداشاته» كي يضمن ولاءهم.

و«الأولداشات» هم مماليكه وخاصَّةُ رجاله، وهي الكلمة التي سيتم تحريفها بعد ذلك لكلمة أسهل، هي «ألاضيش»!

وبهذا سيضمن كل أمير ولاء «ألاضيشه» وإخلاصهم، وسيكون مطمئنًّا أنه سيجدهم دائمًا إلى جواره في أي صراع من صراعات المماليك التي لا نهاية لها.

وهذا بالضبط هو الخطأ القاتل الذي وقع فيه أمير مملوكي اسمه إسماعيل كاشف أبو الشراميط، عندما تنازل عن التزامه لزوجته وأولاده، متجاهلًا تمامًا مماليكه، وكانت النتيجة أنْ ذبحَهُ مماليكه في بيته هو وزوجته ذات ليلة خريفية من ليالي سنة ١٧٨٦م!

فإذا سرتَ ذات يوم في الغورية ووصلت إلى باب زويلة، ستصبح الخيّامية أمامك. في الخيامية كان بيت إسماعيل كاشف أبو الشراميط، الذي قتله «ألاضيشه» عندما أراد أن يُخرجهم من «مولد» الالتزام «بلا حمص»!

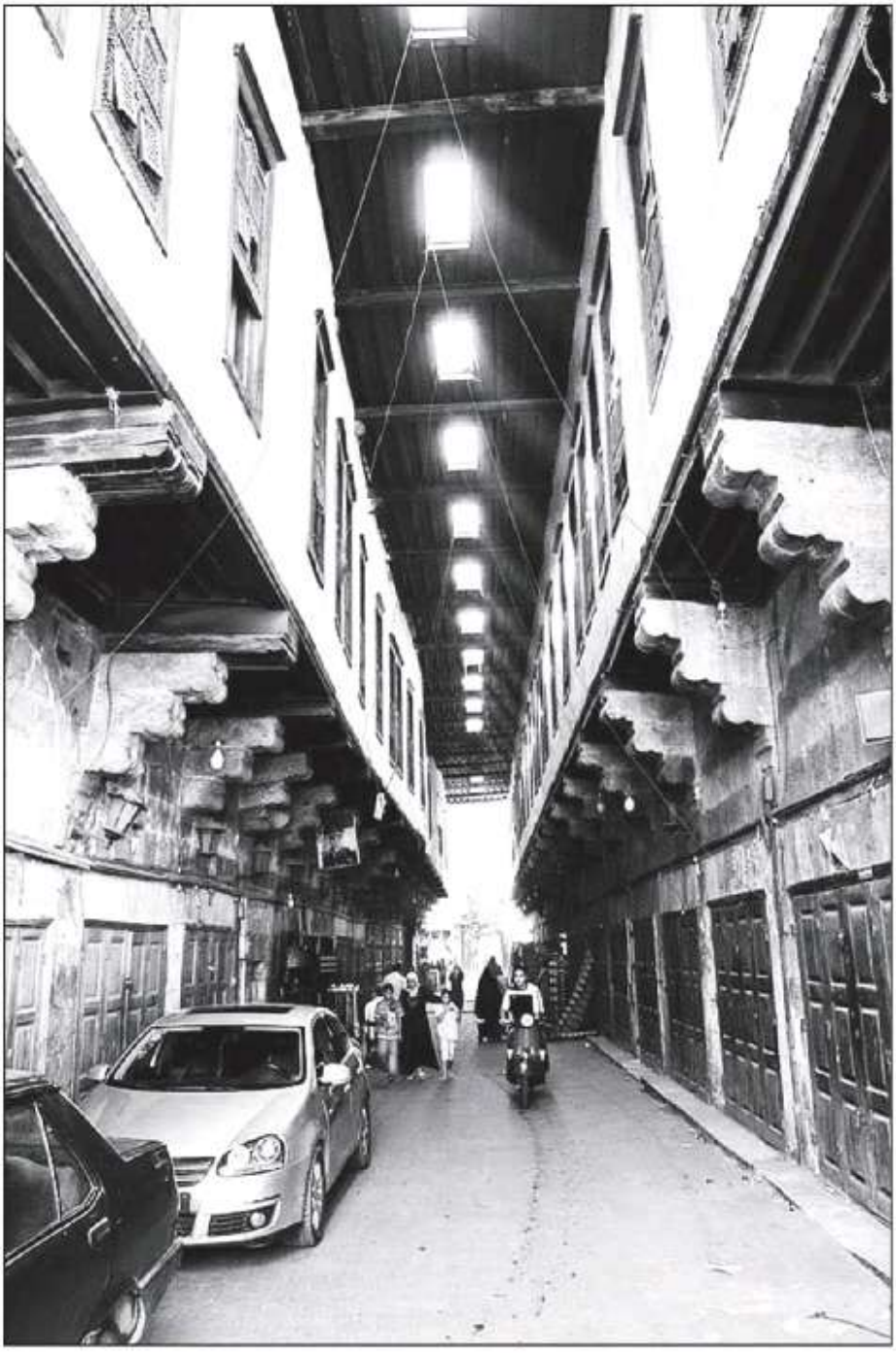

(شارع قصبة رضوان ـ الخيامية)

الشيخ الدردير.. أحد مفاتيح الفرج!

صحيح أن الشيخ أحمد الدردير كان واحدًا من أهم شيوخ عصره، إن لم يكُن أهمهم على الإطلاق، إلا أن كونه شيخًا للمالكية تُدرَّس كتبه وشروحه إلى اليوم، أو كونه واحدًا من أكابر الزهَّاد في زمانه، فهذا كله ليس بيت القصيد.

أما ما يعنينا بحق، فحكاية كهذه:

في أوائل سنة ١٧٨٦م، غادر مراد بك القاهرة ليعيث فسادًا في قرى الوجه البحري، وترك وراءه رجاله في القاهرة يستبيحونها كيف شاؤوا، يسرقون ويصادرون أموال الناس ويهاجمون البيوت وينهبونها أمام أعين أصحابها.

على رأس رجال مراد بك، كان حسين بك، المعروف بـ«شفت»، أي اليهودي!

وفي عصر أحد الأيام، ركب حسين بك (شفت) مع رجاله إلى الحسينية؛ حيث هاجموا بيت أحد أولاد البلد، واسمه أحمد سالم الجزار، ونهب «شفت» ورجاله البيت على بكرة أبيه، والناس في الشارع ينظرون إليهم ويضربون كفًّا بكف!

وبعد أن أفاق أهل الحسينية من صدمتهم، ثاروا ثورة عارمة، وخرجوا في مظاهرة كبيرة وقد انضم إليهم كثير من أهالي الأحياء المجاورة، قاصدين الجامع الأزهر، فقابلهم «الدردير» هناك وطمأنهم قائلًا لهم: أنا معكم، في الغد نجمع أبناء البلد من بولاق ومصر القديمة وحارات القاهرة وأركب معكم فننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم.

ويبدو أن اتفاق «الدردير» مع أهل الحسينية قد طار فورًا حتى بلغ مسامع إبراهيم بك الذي خشي من تفاقم الأمر، فسارع بإرسال اثنين من رجاله إلى «الدردير» يتعهدان بأن يعيدا كل ما نهبه حسين شفت من الحسينية.

غالبًا ما كان شيوخ الأزهر ملجأً يستجير به أصحاب المظالم في الملمَّات، وكان دورهم يتلخَّص عادةً في التوسُّط لرفع الظلم عند الأمراء والحكام بما لهم من نفوذ اجتماعي وعلاقات بطبقة الحكام. أما أن يقوم شيخٌ بنفسه ليدافع عن المظلوم مُعرِّضًا نفسه للخطر ومُفتيًا بأن من مات في أثناء ذلك فهو شهيد،، فهذا مما لم يعهده المصريون في مشايخهم قط.

وحتى بعد أن خَبَت حماسة الجماهير سريعًا، وعادت مظالم المماليك سيرتها الأولى، فإن الجموع التي لم يخيّب «الدردير» رجاءها ظلّت تذكر له صلابته في الحق، وإسراعه إلى نصرة المظلومين، حتى بعد وفاته بعد هذه الحادثة ببضعة أشهر.

عندما يعتقد المصريون صلاح أحد الأشخاص، فإنهم يجعلونه وليًّا من أولياء الله الصالحين، أما إذا أرادوا أن يرفعوه درجةً فوق درجة الولاية، فإنهم يتحايلون بأي طريقة ليربطوا بينه وبين الأولياء الكبار من آل البيت، وكذا فعلوا مع الشيخ أحمد الدردير، فلقبوه بوزير الحسين!

والتاريخ ليس حكرًا على المراجع والوثائق فحسب، فثَمَّة أثرٌ من التاريخ يسري دومًا في كل ما حولنا، حتى لو كان كتاب أدعية شعبية مُجربة ككتاب «من مفاتيح الفرج لترويح القلوب وتفريج الكروب».

سيجعل «مفاتيح الفرج» من جامع الدردير مكانًا مباركًا لا يُرَدُّ فيه الدعاء، بشرط اتباع هذه الطريقة المُجربة:

إذا كانت لك حاجة، فزُر مقام «الدردير» واقرأ له الفاتحة، ثُمَّ انطلق بعدها لزيارة مقام سيد الشهداء الحسين بن علي من دون أن تنطق بكلمة واحدة في الطريق، كي لا ينقطع حبل المدد بينك وبين الوليَّين، وأمام مقام «الحسين» ادعُ بما شئت ودعاؤك مُجاب لا يُردُّ بإذن الله!

لقد كان الوجدان الشعبي قادرًا على أن يجعل من جامع «الدردير» مكانًا يستجاب الدعاء فيه، ربما لأن «الدردير» نفسه حال حياته لم يكُن يتأخَّر عن الوقوف بجانب أي مظلوم وتلبية أي نداء استغاثة!

أما عن علاقة جامع «الدردير» بأول حاكم اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية، فتلك حكاية أخرى!

(مقام الشيخ أحمد الدردير)

المروءة التي تسببت في بناء جامع الدردير!

تبدو الأماكن أحيانًا كمغناطيس عملاق، قادر على أن يجذب حكاياته الخاصة مهما بعدت وأينما كانت..

وأنت تستقبل القبلة مثلًا في جامع «الدردير»، سيجذب مغناطيس الحكايات سيرة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، أحد عباقرة زمانه، الذي لم يكُن مؤرخًا وفقيهًا حنفيًّا ثبتًا وحسب، بل كان ميقاتيًّا بارعًا أيضًا، وهي وظيفة دقيقة كانت تحتاج إلى معرفة بعلوم الفلك والجغرافيا، وهو الذي قام بضبط اتجاه قبلة الجامع بنفسه بناءً على طلب شخصي من الشيخ أحمد الدردير.

أما حين تسرح بناظريك في أركان الجامع الصغير، تاركًا نفسك لسكينة عجيبة تغمرك وتُنسيك صخب الشارع بالخارج، فسيجذب

المغناطيس هذه المرّة حكاية أخرى من آخر بلاد المسلمين، من المغرب الأقصى!

فقد اعتاد محمد الثالث، سلطان المغرب، أن يُرسل كل عام مبالغ مالية لكبار مشايخ الأزهر وأهل الحرمين وشرفاء الحجاز واليمن، إضافة للقرَّاء وأئمة المساجد داخل المغرب وخارجه.

كانت الهدايا والصلات المالية التي يرسلها الحكام للشيوخ وكبار علماء الدين ممارسة شائعة طول العصور الوسطى، يرجع هذا إلى طبيعة دور رجال الدين كطبقة اجتماعية حينها، فقد كان شيوخ الأزهر يتقاضون رواتب رمزية من الدولة، على عكس شيوخ الدولة العثمانية مثلًا، وكان اعتماد مشايخ الأزهر على ريع الأوقاف الموقوفة عليهم أو التي يتولون نظارتها، وبالمقابل كان المشايخ غالبًا ملجأً لأي محتاج أو عابر سبيل أو طالب علم فقير. مع ملاحظة خصوصية سلاطين المغرب، من ناحية كونهم ينتمون إلى أسرة شريفة تنحدر من نسل علي بن أبي طالب، ما دعا سلاطين المغرب إلى أن يُلقَّبوا بألقاب الخلافة وإمارة المؤمنين، خاصةً أن المغرب الأقصى حافظ على استقلاله في وجه العثمانيين الذين حكموا المغرب الأدنى والأوسط (ليبيا وتونس والجزائر حاليًّا)، أما المغرب كما نعرفه حاليًّا فلم يحكمه العثمانيون قط، وبالتالي فقد حرص سلاطين المغرب، عبر رعايتهم لرجال الدين، على تأكيد خلافتهم وسلطتهم الدينية والسياسية، إضافة إلى أن الدولة العثمانية كانت تضيِّق الخناق على تدريس المذهب المالكي في المغرب الأدنى والأوسط لحساب المذهب الحنفي؛ حيث إنه المذهب الرسمي المعتمد في الدولة العثمانية، لهذا فقد اتجه المغاربة بكثافة لدراسة مذهب الإمام مالك في الأزهر الشريف، وكان بالتالي من مصلحة سلاطين المغرب دعم الأزهر لذلك.

وفي إحدى السنوات، بعد أن أتم أحد أبناء السلطان محمد الثالث مناسك الحج، وفي أثناء رجوعه إلى المغرب، مكث في القاهرة لبعض الوقت حتى نفد ما معه من المال تمامًا، وإذا بمبعوث أبيه السلطان يصل إلى القاهرة ليُسلِّم المشايخ صِلاتهم، اعتقد الأمير الشاب أن مشكلته قد حُلَّت بذلك، لكن المبعوث رفض أن يُسلِّم ابن السلطان ما معه من المال، وحين بلغ الأمر مسامع الشيخ «الدردير»، أبى أن يتسلَّم المبلغ الذي خصصه له سلطان المغرب، وتنازل عنه لابن السلطان.

وعندما بلغ الأمر السلطان بعدها، أرسل لـ«الدردير» عشرة أضعاف ما كان يرسله له كل عام مكافأةً له على مروءته، ومن هذا المبلغ الضخم، حج الشيخ «الدردير» وبنى مسجده هذا!

وعلى الرغم من مآثر السلطان محمد الثالث العديدة كأحد كبار الساسة في عصره، فإنه قد اشتُهر تاريخيًّا لسبب آخر، باعتباره أول حاكم على الإطلاق يعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، كما تُعد المعاهدة التي وقعها السلطان سنة ١٧٨٦م مع الحكومة الأمريكية واحدة من أقدم المعاهدات الدولية الأمريكية قاطبة!

في جامع «الدردير» بالكعكيين، تمهل قليلًا وتذكر مروءة شيخ المالكية في زمانه، وكيف كانت سببًا في بناء جامعه!

مراد بك.. وخراب الإقليم المصري!

تغدو أحيانًا حكايات التاريخ القديمة مدهشة بشكل يفوق الوصف، فصحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه أبدًا، ومع ذلك فلا يملك المرء نفسه حين يشعر ببعض الألفة أمام بعض أحداث التاريخ وشخصياته، كتلك الألفة التي تنتاب من يُلم بطرفٍ من سيرة مراد بك..

مراد بك محمد.. كان مملوكًا لا يُعرف له أب، فنُسب إلى سيده محمد بك أبو الدهب، الذي كان مملوكًا أيضًا بالمناسبة، وبعد وفاة شيخ البلد محمد أبو الدهب، آل حكم مصر إلى أهم اثنين من مماليكه: إبراهيم بك ومراد بك.

لم يكُن «مراد» يعبأُ كثيرًا بالسياسة وأمور الحكم والإدارة، فتركها جميعًا لإبراهيم بك، وتفرَّغ هو لجمع الأموال والتنعُّم في قصوره بالجيزة التي كانت تُعد تقريبًا ملكية خاصة له، وظل سنوات كثيرة لا يخرج

من برِّ الجيزة إطلاقًا تاركًا رجاله يعيثون في الأرض فسادًا كما يحلو لهم.

لم يُطلَق اسم «مراد» على أهم شوارع الجيزة من فراغٍ إذًا!

ومع ذلك، فقد كان يُلح على مراد بك وسواسٌ غريب، فلطالما استشعر أن كلَّ مَن حوله يتآمرون على خيانته، وكان يخشى جانب القريب قبل البعيد، ربما كان هذا هو السبب الذي دعاه إلى أن يبني جيشه الخاص!

أنشأ «مراد» مصانع للبارود والقنابل والمدافع، وترسانة لتصنيع السفن الحربية، وكانت هذه المصانع من الضخامة لدرجة أن الحديد والفحم والرصاص والأخشاب قد شحَّت في مصر؛ لأن «مراد» كان يحتكرها جميعًا لمصانع أسلحته. ولم يكُن هناك من يعرف تحديدًا ما الذي سيفعله «مراد» بكل هذه الأسلحة والذخائر بالضبط، لكن وجودها كان مدعاة للاطمئنان والتفاؤل على أي حال!

أما عن تمويل هذه الصناعات الحربية كلها، فكان من الجمارك والضرائب الباهظة التي يجبيها من التجار الأجانب، وهو ما سيتحجج به نابليون بعد ذلك لتبرير حملته على مصر.

على سيرة الحملة الفرنسية، لم يستطِع مراد بك، بكل تجهيزاته وأسلحته ومصانعه، أن يصمُدَ في وجه طليعة الجيش الفرنسي أكثر من ساعة واحدة، فرَّ بعدها إلى قصره في الجيزة ليأخذ معه ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، ثُمَّ يمِّم وجهه شطر الصعيد تاركًا كل عتاده ليأخذه الفرنسيون غنيمة باردة!

وفي الصعيد، أخذ مراد بك ومماليكه يلعبون لعبة القط والفأر مع القوات الفرنسية، حتى إذا ملَّ مراد بك من شظف العيش في الصعيد

بعيدًا عن الحياة المنعَّمة التي طالما اعتادها في القاهرة، قرَّرَ حينها أن يُهادن الفرنسيين، ووافق أن يُصبح رجل فرنسا في الصعيد، أي أن يحكم الوجه القبلي ويدفع الخراج كل عام لفرنسا!

وإحقاقًا للحق، فقد كان مراد بك مخلصًا للفرنسيين كأشد ما يكون الإخلاص؛ فعندما ثارت القاهرة ثورتها الثانية، أرسل «مراد» رسالة إلى «كليبر» ينصحه أن يحرق القاهرة بمن فيها، وليؤكِّد جديته أرسل من الصعيد مركبين محملين بالحطب ليُسهل مهمة إشعال النيران على الفرنسيين!

بعدها ببضعة أشهر، أرسل الفرنسيون يستدعون مراد بك لكي يساعدهم بقواته ضد العثمانيين، وما إن بلغ «مراد» سوهاج حتى أصابه الطاعون ومات بها سنة ١٨٠٠م، وقرر مماليكه أن يدفنوه إلى جوار العارف بالله، أشهر أولياء الله الصالحين بسوهاج، كما لو أنهم أملوا أن يشفع العارف لسيدهم عند الله!

أما «الجبرتي» فقد استطاع أن يوجز لنا حياة مراد بك وشخصيته في عبارة قصيرة: «كان يغلُب عليه الخوف والجبن مع التهور والطيش، والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يعهد عليه أن انتصر في حرب باشرها أبدًا، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور.. وبالجملة، كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري»!

زفة «كُريِّم» في الصليبة!

التأريخ كائن حي لا يكفُّ عن التغيُّر والتبدُّل، صحيح أن أحداث التاريخ ووقائعه ثابتة بحكم أنها حدثت وانقضت في الماضي، لكن تفسير أو تأويل ما حدث هو ما يتغير مع الوقت ومع تنوع الثقافات والمشارب؛ لذا فزيارة المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث تغدو رياضة ذهنية ممتعة تكسر احتكار وقولبة أحداث التاريخ في صورة رسمية واحدة.

فما الذي يُمكن أن نستخلصه من مصدر تاريخي بالغ الأهمية كتاريخ «الجبرتي» عن السيد محمد كُريِّم؟!

قدّم لنا «الجبرتي» محمد كُريِّم على أنه رجل مراد بك في الإسكندرية، فمع أن «كُريِّم» قد بدأ حياته قبانيًّا يزن البضائع للناس في دكان بسيط، فإنه سرعان ما استطاع التقرُّب إلى أمراء المماليك حتى جعله مراد بك مسؤولًا عن الديوان والجمارك بالإسكندرية كلها، وأطلق يده في فرض

الغرامات ومصادرة بضائع التجار الأوروبيين كما يشاء. كما اعتبره «الجبرتي» مسؤولًا عن خراب الإسكندرية كلها بل وعن نجاح الحملة الفرنسية؛ وذلك لأنه رفض عرض أمير البحر الإنجليزي «نيلسون» ببقاء الأسطول الإنجليزي مقابل ساحل الإسكندرية لحراستها من الأسطول الفرنسي، وبعد مغادرة الإنجليز بيومين فحسب، داهم الأسطول الفرنسي الإسكندرية!

بعدها، عيَّن «نابليون» السيد محمد كُرِّيم محافظًا للإسكندرية لبعض الوقت، حتى عثر الفرنسيون في قصر مراد بك على رسائل من محمد كُرِّيم تدعوه إلى قتال الفرنسيين، فتأكد «نابليون» أخيرًا من أن ولاء «كُرِّيم» ما زال معقودًا للمماليك، وأمر باعتقاله وإحضاره إلى القاهرة، وهناك خيَّره الفرنسيون بين الموت وبين أن يفتدي نفسه بفدية مالية ضخمة.

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، بحسه القومي، أن «الجبرتي» قد ظلم محمد كُرِّيم حين ادعى أن «كُرِّيم» قد أرسل، وهو في القاهرة، مستغيثًا بمشايخ الأزهر وبالسيد أحمد المحروقي، شاه بندر التجار، مستعطفًا إياهم قائلًا: «اشتروني يا مسلمين»، وسائلًا خلق الله أن يجمعوا له الفدية التي طلبها «نابليون» حتى لا يُقتل، في حين أن المصادر الفرنسية التي نقل عنها «الرافعي» تذكر أن «كُرِّيم» قد رفض بنفسه أن يدفع الفدية قائلًا: «إذا كان مقدَّرًا عليَّ أن أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ، وإذا كان مقدَّرًا لي الحياة فعلامَ أدفعه؟». وأغلب الظن أن «كُرِّيم» كان يريد أن يُبعد عن نفسه شبهة الثراء الفاحش، فقد كان من المشهور عن «كُرِّيم» أنه يمتلك ثروة ضخمة اكتنزها من عمله في الجمرك وخبأها في قعر بئر قديمة لا يعرف مكانها أحد سواه.

وفي جميع الحالات، فإن ما ذكره «الجبرتي» يمكننا أن نستشعر منه

عدم تعاطفه مع محمد كُريِّم؛ فقد كان الرجل الذراع اليمنى لمراد بك في الإسكندرية، وكان مسؤولًا عن المظالم والمكوس التي فرضها على التجار الفرنسيين والتي كانت أحد الأسباب التي ادعاها «نابليون»، في منشوره الشهير، ليبرِّر الحملة الفرنسية على مصر، ربما لهذا كله لم يعبأ أحد بجمع الفدية لمحمد كُريِّم، وتركوه ليواجه مصيره المحتوم من دون أي شعور بتأنيب الضمير.

* * *

فإذا ما أخذتك قدماك يومًا إلى شارع الصليبة، متجهًا إلى ميدان صلاح الدين، فتذكَّرْ أنك تسير في الطريق ذاته الذي سار فيه «كُريِّم» بعد أن أركبه الفرنسيون حمارًا وأشهروه بالطبل والزمر ليكون عبرة لمن يعتبر، وبعدما أطلقوا عليه النار على مرمى حجر من مدرسة السلطان «حسن»، قطعوا رأسه ورفعوه على نبوت وطافوا به والمنادي يصيح: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس!

ومع ذلك، يبقى السؤال مُعلقًا بلا إجابة: تُرى، هل إذا تأخر إعدام «كُريِّم» بضعة أشهر فحسب، وإذا ما رأى بعينيه كيف بدَّل سيده مراد بك موقفه، وكيف هادن الفرنسيين وارتمى في أحضانهم موافقًا أن يكون رجلهم في الصعيد، هل كان «كُريِّم» بعد هذا كله سيظل ثابتًا على موقفه، أم كان سيسير في ركاب الفرنسيين ويرجع إلى الإسكندرية ليُحصِّل الجمارك لحساب فرنسا هذه المرَّة كما كان يجمعها من قبل لحساب مراد بك؟!

علم ذلك عند الله!

لحظة جنون في تكية الرفاعية!

الأماكن والحكايات هي فقط ما تستطيع معًا أن تثبت أن روايات التاريخ ليست مجرد قصصٍ فارغة للتسلية، لكنها حيواتُ أناسٍ من لحم ودم، عاشوا وعانوا في هذا الوطن مثلنا تمامًا، والأعجب أنهم في لحظة جنون أو عشق اختاروا طواعيةً أن يتركوا كل شيء خلفهم، وأن يُضحُّوا بثرواتهم وبحياتهم ذاتها من أجل ما يؤمنون به.

كم مرّة سِرتَ على كورنيش النيل، ومررت بمركز التجارة العالمي؟

لو جرَّبت أن تدخل الشارع الذي يسبقه مباشرة، فستجد نفسك أمام أرض فضاء كان يشغلها مستشفى بولاق العام، الذي تمت إزالته منذ عدة أعوام. أما قبل أن يُبنى المستشفى، فكانت تشغل هذه المساحة تكية الرفاعية، وكانت تطل حينها على النيل مباشرة. وفي سنة ١٩٣٦م نُقلت التكية من مكانها، وتحركت قليلًا إلى موقعها الحالي بجوار مسجد «سنان» باشا.

أما وقد عرفت شيئًا عن تكية الرفاعية وكيف انتقلت بضع خطوات من مكانها، فأنت جاهزٌ الآن لكي تتذكر الحاج مصطفى البشتيلي والشيخ محمد الدواخلي.

وعلى الرغم من الفروق الكبيرة التي بينهما، فإن «البشتيلي» و«الدواخلي» كانا عديلين، أي أنهما كانا متزوجَين من أختين. لم تكُن هذه الفروق واضحة في بادئ الأمر، فالذي كان ظاهرًا للناس أن الاثنين ذوي مركز اجتماعي مرموق: «البشتيلي» واحدٌ من كبار تجار الزيوت، وعنده وكالة لتجارة الزيوت في بولاق أبي العلا، كما أنه قد حجَّ بيت الله، وهو أمر نادر ومكلِّف حينها. أما الشيخ «الدواخلي» فكان واحدًا من كبار مشايخ الأزهر، فضلًا عن انتمائه لأسرة ثرية.

لم يظهر الخلاف بين «البشتيلي» و«الدواخلي» إلا بعد الحملة الفرنسية، شكّل «نابليون» الديوان فور دخوله القاهرة ليصبح الواجهة التي سيحكم من خلالها، وكان الشيخ «الدواخلي» أحد أعضاء هذا الديوان. أما «البشتيلي» فأغلب الظن أنه كان رافضًا للوجود الفرنسي، لا نعرفُ تحديدًا متى بدأ عداؤه للفرنسيين، فأول معلومة يذكرها لنا «الجبرتي» عن مصطفى البشتيلي كانت عندما قبض عليه الفرنسيون بعد أن وشى به بعض عيونهم مُدَّعين أنه يُخزن السلاح في وكالته، وحين فتشوا الوكالة وجدوا أن براميل الزيت قد مُلئت بالبارود!

وعندما أصبح وجود الحملة الفرنسية في مصر مسألة وقت، وتوصل الفرنسيون إلى اتفاق مع الإنجليز والعثمانيين على الخروج، أفرجوا عن «البشتيلي» مع غيره من المعتقلين، فلم يكُن يخطر على بال أحد ساعتها أن القاهرة ستشتعل بالثورة من جديد.

في هذه المرّة، كان قلب البشتيلي قد مات، فنظّم ثوار بولاق، وأقاموا المتاريس في كل مكان، وأمّنوا مداخل بولاق ومخارجها، بعدها وزَّع البشتيلي الأسلحة على رجاله، وهاجموا أحد المعسكرات الفرنسية في بولاق، فقتلوا حراسه واستولوا على ما به من الأسلحة والتجهيزات، وصادروا مخازن الغلال ووزعوا محتوياتها على الأهالي.

وجد المماليك، الذين كانوا يشاركون في ثورة القاهرة، أن مصلحتهم مع الفرنسيين، فسحبوا أنفسهم من الثورة وهادنوا «كليبر»، أما الثوار فلم يوافقوا على الصلح أبدًا، فدُكَّت بولاق على رأس أهلها..

عندما قبض الفرنسيون بعدها على مصطفى البشتيلي، حبسوه يومين في تكية الرفاعية، وقرروا أن يجعلوه عِبرةً لأهالي بولاق بأكملهم، فجرَّسوه، ثُمَّ اختاروا أن يقتلوه بأكثر الطرق إيلامًا له: أن يأتوا برجاله الذين ثاروا معه وكانوا يحمونه ويحميهم طول أيام الثورة، ويأمروهم بضرب قائدهم «البشتيلي» بعصيِّهم حتى يموت!

هل رفض بعض رجاله أن يقوموا بذلك؟ هذا مؤكَّدٌ حتى لو لم يصلنا أي خبر بهذا الخصوص، كما أنه من المؤكد أيضًا أن كثيرًا من رجاله وافقوا وظلوا يضربونه حتى مات.

الثورة لحظة جنون دافق، قرار صاعق يسري في الإنسان كشحنة كهربية تجعله يُؤمن بأن حياته كلها لا قيمة لها من دون الثورة!

لا نستطيع أن نلوم «البشتيلي» على جنونه، كما لا نستطيع أن نلوم رجاله الذين قتلوه على أنهم لم يكونوا بقدر جنونه، وأنهم اختاروا حياتهم بدل الموت، فهم لم يروا ما رآه «البشتيلي» ولا أحسوا بالذي أحسه.

بعدها، وبطريقةٍ ما، آلت كل أملاك وأطيان الحاج مصطفى البشتيلي إلى عديله الشيخ «الدواخلي»!

عاش «الدواخلي» متنعمًا بالثروة والنفوذ طول حكم الفرنسيين، ولم يفقد حظوته في الفترة القصيرة التي حكم فيها العثمانيون بعد جلاء الفرنسيين، ووصل محمد علي باشا للحكم و«الدواخلي» في أوج مكانته، أما حين زاد جشعه على الحد، فقد جرَّده الباشا من كل مناصبه ونفاه إلى دسوق، ومنها إلى طنطا.

وفي المنفى، مات «الدواخلي» وحيدًا دون أن يشعر أو يهتم به أحد!

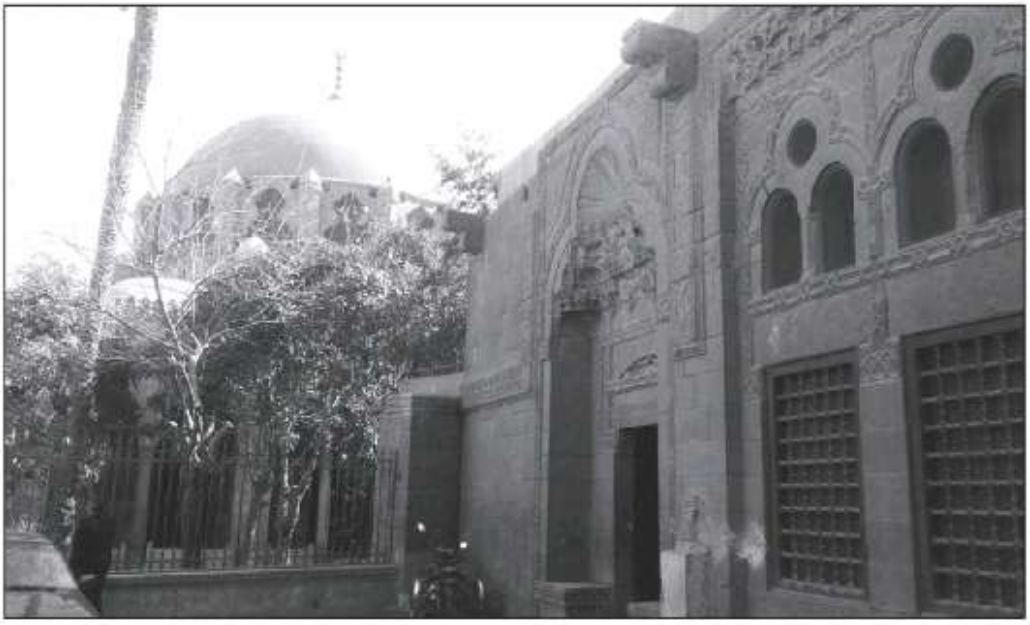

(تكية الرفاعية وبجوارها جامع سنان باشا)

سحورٌ أخير عند سبيل أودة باشي!

لم يكُن الأمر بالسهولة التي يبدو عليها..

فحتى بعد أن تحقق ذلك المشهد العظيم، واجتمع ما يزيد على أربعين ألف شخص عند بيت القاضي، على رأسهم عمر مكرم وكبار علماء الأزهر، واتفقوا على خلع «خورشيد» باشا وتولية محمد علي حكم مصر، ضرب أحمد خورشيد بهذا كله عرض الحائط، وتحصَّن بالقلعة، معلنًا أن من ولَّاه هو السلطان، فلا ينزل من القلعة لرأي الفلاحين.

فبدأت الثورة من هنا، وقرر المحتجون حصار القلعة حتى يستسلم «خورشيد»..

لعب أولاد البلد الدور الرئيس في الحصار، فانتشر الثوار مسلحين بكل ما وصلت إليه أيديهم من أسلحة أو عصي، وامتلأت القاهرة

بالمتاريس. صحيحٌ أن جنود محمد علي من الألبان كانوا مع الثوار، إلا أنهم كانوا يُقاتلون بفتور وملل، وكثيرًا ما تركوا أماكنهم شاعرين أنهم لا ناقة لهم ولا جمل في حصار كهذا، وتذبذب موقفهم تارةً يقفون في صفِّ أولاد البلد، وتارةً ينحازون لجنود «خورشيد» ويهاجمون الثوار المتمترسين في الرميلة.

وفي أيام الزخم تلك، سمعنا عن حجاج الخضري للمرَّة الأولى..

أما كيف ترك «حجاج» مسقط رأسه، قرية المنوات بالجيزة، وانتقل إلى القاهرة حتى أصبح شيخًا لطوائف الخضرية بها؟ ولماذا؟ فكل هذه التفاصيل ستظل لغزًا عصيًّا على الحلِّ أبدًا.

وما عرفناه من كلام «الجبرتي» أن «حجاج» كان من الزعامات الشعبية البارزة أيام حصار القلعة، وأنه هو مَن أحبط محاولة كسر حصار القلعة، عندما أحضر بعضُ قادة «خورشيد» قافلةً من الجمال من الصعيد محمَّلةً بالأسلحة والمؤن، وكانت الخطة أن تتسلل القافلة إلى القلعة، وفي الوقت نفسه تنهال قذائف مدافع القلعة على القاهرة منهيةً الحصار بذلك.

لكن «حجاج» ورجاله استطاعوا اعتراض هذه القافلة وقتل من فيها. وربما لو نجحت تلك المؤامرة لماتت الثورة في مهدها، ولدكّ «خورشيد» القاهرة على رؤوس أهلها، ولما وصل محمد علي إلى الحكم قط!

وحين جاء الفرمان المنتظر أخيرًا بعزل «خورشيد» وتولية محمد علي حكم مصر، رسم لنا «الجبرتي» صورة مبهجة لحجاج الخضري وهو يسير مستلًّا سيفه على رأس موكب ضخم من أولاد البلد متجهين إلى بيت محمد علي بالأزبكية لتهنئته بتولي الحكم.

بعدها، وحتى بعد أن استتب الأمر لمحمد علي، يبدو أن «حجاج» قد شعرَ أن الجنود قد يغدرون به في أي لحظة لسابق قتاله لهم، فترك القاهرة لبعض الوقت وأقام بالمنوات حتى تهدأ الأحوال، ثُمَّ عاد إلى القاهرة ثانية، ولم نعُد نسمع عنه شيئًا لفترة طويلة، فقد مرَّ ما يزيد على السنوات العشر دون أن يذكر «الجبرتي» كلمة واحدة عن حجاج الخضري، وأغلب الظن أن «حجاج» قد قضى هذه الفترة الطويلة مشغولًا بتجارته ومسؤولياته كشيخ لطوائف الخضرية في القاهرة، بعيدًا كل البعد عن أمور السياسة ومشاغباتها، وربما نسي أيام الثورة أو كاد، ولعله إذا ما ناوشته ذكريات تلك الأيام الخوالي، كان يتلقاها بمزيج من الفخر والتعجب ممَّا كان عليه أيام شبابه من ثورة جامحة وقلب ميِّت لا يعبأ بالمخاطر.

أما محمد علي، فلم ينسَ أبدًا كيف قاد «حجاج» أولاد البلد ونظَّم صفوفهم، تمامًا كما لم ينسَ الباشا كل من ساعدوه على الوصول إلى عرش مصر!

فإذا قادتك قدماك إلى الجمالية، ووصلت إلى حارة المبيضة، فقِفْ قليلًا أمام سبيل أودة باشي، وأنعم النظر فيه جيدًا، فهنا بالضبط، وفي ليلة من ليالي شهر رمضان سنة ١٨١٦م، قبضَ المُحتسب ورجاله على حجاج الخضري من دون جريرة ولا سابق إنذار، وشنقوه وقت السحور على السبيل، وتركوه مُعلقًا ليوم كامل قبل أن يأذنوا لأهله بدفنه. أما «الجبرتي» فعلَّق على شنق حجاج الخضري بكلمة واحدة: قُتل مظلومًا زجرًا لغيره!

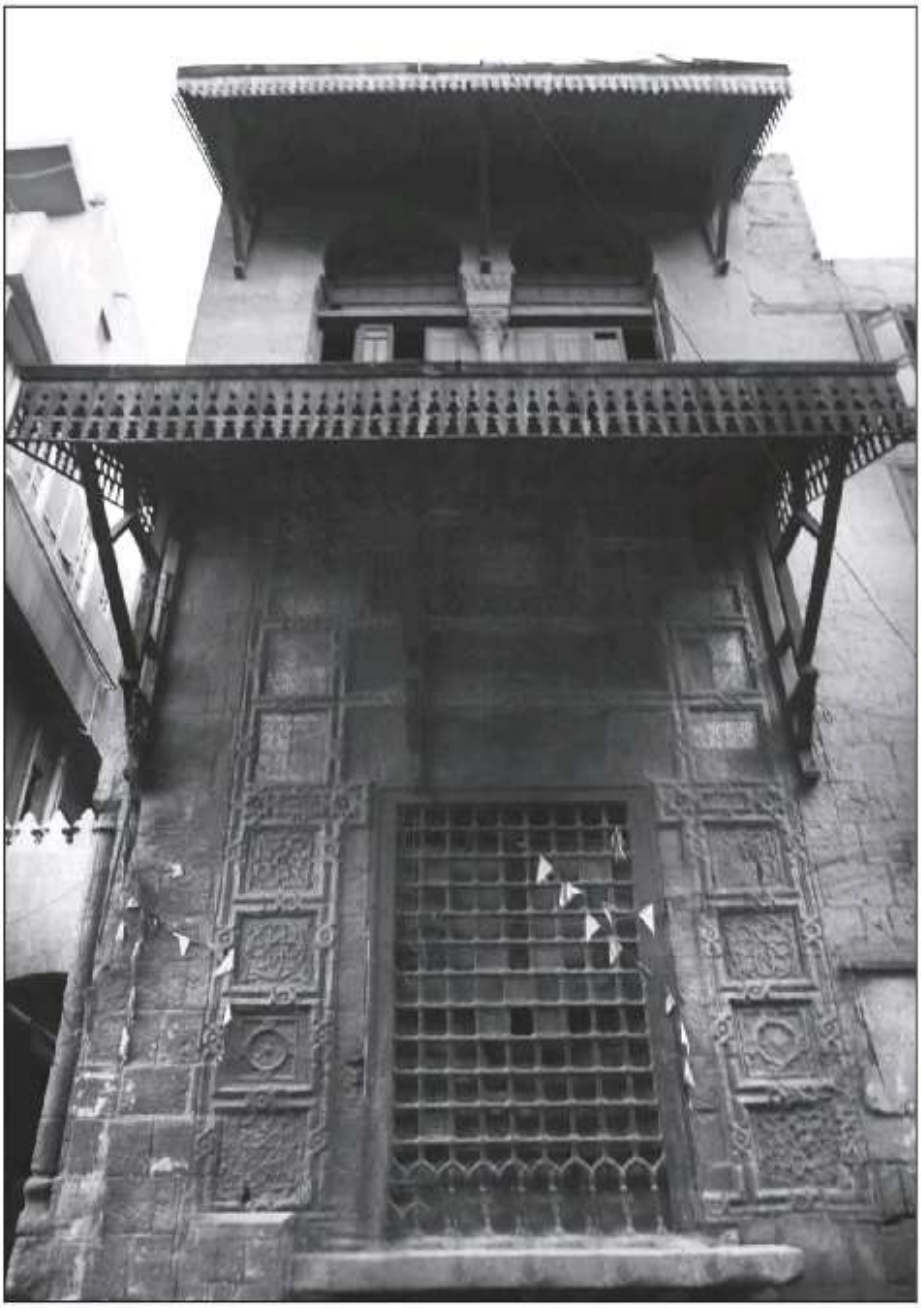

(سبيل أودة باشي)

لطيف باشا.. حامل المفاتيح التي قتلته!

كان لطيف أغا مملوكًا لمحمد علي باشا، أهداه له صهره عارف بك، وأحبه وقرّبه الباشا فجعله «أنختار أغاسي»، وهي وظيفة معناها الحرفي «حامل المفاتيح»، أما طبيعة عملها فهي الإشراف على العاملين في «الخاص أودة»، أي القائمين على خدمة الباشا الخاصة داخل القصر، وبالطبع فإن منصبًا كهذا يجب أن يكون صاحبه موثوقًا به بحكم قربه من الباشا.

وربما لهذا، قرر محمد علي أن يرسله في مهمة شرفية بسيطة إلى إسطنبول، فقد وصلت البشائر إلى مصر بأن عسكر الباشا قد استطاع السيطرة على قلعة المدينة المنورة، فكان على «لطيف» أغا أن يسافر بمفاتيح القلعة إلى إسطنبول، كرمزٍ للانتصار على الوهابيين والسيطرة العثمانية على الحرمين

الشريفين، ولكن ما حدث هو أن «لطيف» قد قوبل هناك بحفاوة بالغة لم يخطر على باله أنه سيحظى بمثلها أبدًا، فخرج للقائه أكابر الدولة العثمانية قبل أن يصل إلى العاصمة حتى، وأعدوا له موكبًا مهولًا تقدمه «لطيف» وأمامه سار حاملو مباخر الذهب والفضة، والمعازف تصدح تحيةً له في كل مكان سار فيه، وأغدق عليه السلطان ورجال دولته الهدايا والمنح الثمينة، فأنعم عليه السلطان العثماني بالباشوية التي لم يمنحها لأحد في مصر منذ سنة ١٨٠٥م سوى لأبناء محمد علي باشا.

عاد «لطيف» إلى مصر بوجه غير الوجه الذي خرج به؛ فقد رجع يحمل الباشوية وثروة بلا آخر، فأحس أن القدر قد ابتسم له أخيرًا، وأعد له ما لم يعده لمملوك قبله، فبدأت تصرفات «لطيف» وغروره المتعاظم يستفز الكتخدا محمد بك لاظ، نائب محمد علي، الذي أخذ يوسوس للباشا أن «لطيف» يجمع بقايا المماليك من حوله ويريد أن يجعل من نفسه زعيمًا عليهم.

صحيح أن «لطيف» كان مملوكًا، لكنه بالقطع لم يكُن من جنس المماليك الذين عاشوا في مصر وحكموها قبل محمد علي وعُرفوا بـ«الأمراء المصرية» أو «المصرلية»، فكان «لطيف» بعيدًا كل البعد عن «المصرلية» وتحزباتهم السياسية ورغبتهم في الاستئثار بالحكم.

وأغلب الظن أن محمد بك لاظ أراد التخلُّص من «لطيف» لا لكونه مملوكًا وحسب، و«لاظ» يمقت جنس المماليك كما يذكر «الجبرتي»، لكنه خاف من شعبية لطيف باشا ومكانته التي حظي بها في إسطنبول، خاصة أن المماليك قد استُؤصلت شأفتهم للأبد منذ عامين فقط في مذبحتهم الشهيرة، ولم يكُن الباشا ليسمح بأن يبزغ نجم مملوك جديد قد يبدو منافسًا له في حكم مصر مهما كان مقربًا منه.

ومع أن محمد علي كان متغيبًا حينها لقتال الوهابيين في الحجاز، وأن الذي أدار عملية التخلُّص من «لطيف» كان نائب الباشا محمد بك لاظ، فإن «الجبرتي» يشير إلى أن محمد علي قد فوَّض، قبل سفره، «لاظ» في التصرف بما يراه مناسبًا مع «لطيف»، والظاهر من كلام «الجبرتي» أن كل ما كان يشغل بال الكتخدا بك هو ألَّا يثير حفيظة إسماعيل كامل بن محمد علي باشا، بحكم أن «لطيف» كان مملوكًا في الأصل لحَمِي «إسماعيل»، وهو من أهداه إلى محمد علي، لكن «إسماعيل» لم يكُن ليعبأ بشكليات كهذه، وبعد تسعة أشهر من رجوع لطيف باشا إلى مصر، بات حكم الإعدام مقررًا وفي انتظار التنفيذ.

* * *

عندما تخرج من باب زويلة، تاركًا القاهرة العتيقة وراء ظهرك، فستكون زاوية وسبيل فرج بن برقوق، التي اشتُهرت باسم «الدُهيشة»، أمامك مباشرة، فتذكر حينها أنه في أيام محمد علي باشا كانت المدرسة تبعد أربعة أمتار فقط عن باب زويلة، إلا أنه قد تم فكها وإعادة تركيبها سنة ١٩٢٣م إلى الخلف من موقعها الأصلي بنحو اثني عشر مترًا لتوسيع شارع تحت الربع. وتذكر أيضًا أن رأس لطيف باشا قد عُلِّق على الدهيشة بعد ذبحه في القلعة، ليذكره التاريخ باعتباره حامل المفاتيح الذي تسببت المفاتيح في مقتله!

(زاوية وسبيل الدهيشة)

سبيل ماء على روح ابن الباشا!

يصلح التاريخ، أحيانًا، كي يكون مرآة نتعرَّف فيها إلى حقيقة أنفسنا، ونرى فيها بوضوح الأفكار التي اجتهدنا، بقصد أو من دون قصد، في إخفائها طويلًا، كالطريقة التي نتعاطى بها مع «فتوحات» محمد علي باشا في السودان، وبنائه «الإمبراطورية المصرية»، والكيفية التي نترحَّمُ بها على أيام التوسُّع المصري، بالحماسة ذاتها التي نهاجم بها الاستعمار الإنجليزي الذي نرى أنه أصل كل البلايا التي نعانيها إلى اليوم.

والغريب أننا كثيرًا ما نتحدثُ بفخرٍ عن الدور التنويري المصري في السودان، وأن الباشا هو من بنى الخرطوم وحوَّلها من مجرد قرية صغيرة للصيادين إلى عاصمة للسودان بأكمله، وأن غرضه كان تأمين العمق الاستراتيجي لمصر، والوصول إلى منابع النيل، إلى آخر التبريرات التي ساقها عبد الرحمن الرافعي في تاريخه، ونقلتها عنه كتب التاريخ المدرسية.

وذلك على الرغم من أن ما أراده محمد علي، في واقع الأمر، كان أكثر بساطة ووضوحًا من تلك الأسباب كلها؛ فقد أرسل سنة ١٨٢٠م حملتين للسودان بهدف اصطياد أكبر عدد ممكنٍ من السودانيين واستعبادهم كي يصبحوا نواةً لجيشه النظامي الوليد، فكانوا يسوقون الأسرى السودانيين المساكين في قوافل سيرًا على الأقدام من كردفان إلى أسوان، أي لما يزيد على ١٥٠٠ كم! وعندما لاحظوا أن أعدادًا كبيرة من السودانيين يموتون من الإجهاد، فكَّروا أخيرًا أن ينقلوهم في مراكب من أسوان بدلًا من أن يكملوا الطريق إلى القاهرة مشيًا على الأقدام، وأمر محمد علي باستدعاء عددٍ من الأطباء الأمريكيين لعلاجهم من تفشِّي الأوبئة والأمراض بينهم، وقد برَّر الباشا تفضيله الأطباء الأمريكيين على الأطباء الأوروبيين بأن أطباء أمريكا أكثر خبرة بأمراض العبيد الأفارقة!

أما الأسوأ فهو أن حملتي «فتح» السودان كانتا تحت قيادة اثنين اشتُهرا بقسوتهما المفرطة: إسماعيل كامل بن محمد علي، ونسيبه محمد الدفتردار، زوج ابنة الباشا، ويبدو أن علاقة «إسماعيل» بنسيبه «الدفتردار» توثَّقت قبل ذلك بسنوات منذ أن احتفل محمد علي باشا بعقد زواجهما في يوم واحد سنة ١٨١٣م.

إسماعيل كامل هو قصة في حد ذاته..

كان عنيدًا ودمويًّا بطريقة أزعجت محمد علي نفسه، وعندما أرسل لوالده الباشا يخبره بزهوٍ عن مقدار الضرائب التي جمعها من السودان، نبههُ محمد علي من جديد إلى أن الهدف من الحملة هو جمع الرجال وليس جمع المال!

وقد هيَّجت أساليب إسماعيل كامل العنيفة في جباية الضرائب

جموع السودانيين، فأحضر إسماعيل الملك نمر، ملك شندي، واتهمه أنه وراء ثورة السودانيين، وفرض عليه غرامة ضخمة من الذهب والعبيد وفرض عليه تقديمها خلال أيام قليلة، وإمعانًا في إذلاله، قام «إسماعيل» بصفع الملك نمر على وجهه أمام أتباعه..

لم يُبدِ «نمر» أي رد فعل وقتها، مقررًا أن يردَّ الإهانة بطريقته الخاصة، فأقام بعدها وليمة فاخرة على شرف «إسماعيل» وقادة الحملة، بدعوى تأكيد عُرى الصداقة والمحبة بينهما، وكعربون لهذه الصداقة، جهَّز «نمر» كميات ضخمة من القش حول قصره كهدية كي تستخدمها قوات «إسماعيل» أعلافًا لخيولهم.

وبعد الوليمة، جاء دور المريسة، وهي نوع من الخمور السودانية القوية التي تُصنع من الذرة، وبعد أن شرب «إسماعيل» ومن معه حتى الثمالة، انسحب الملك «نمر» ورجاله بهدوء، وأشعلوا النار في القش، فاحترق القصر بمن فيه!

وفيما بعد، سيكون انتقام محمد الدفتردار لمقتل «إسماعيل» شنيعًا، فيقتل الآلاف، ويهدم بلدة شندي على رؤوس أهلها..

على أي حال، فإذا مررت بسبيل محمد علي بالنحاسين، الذي غدا منذ بضعة أعوام متحفًا للنسيج، فتذكَّر أن الباشا قد بنى هذا السبيل ليكون رحمة ونورًا على روح ابنه إسماعيل كامل الذي احترق حتى الموت في السودان، ولا مانع أيضًا من أن تُراجع حينها سرًّا أساطير الشوفونية المصرية والتحسر على أيام الاستعمار الجميل!

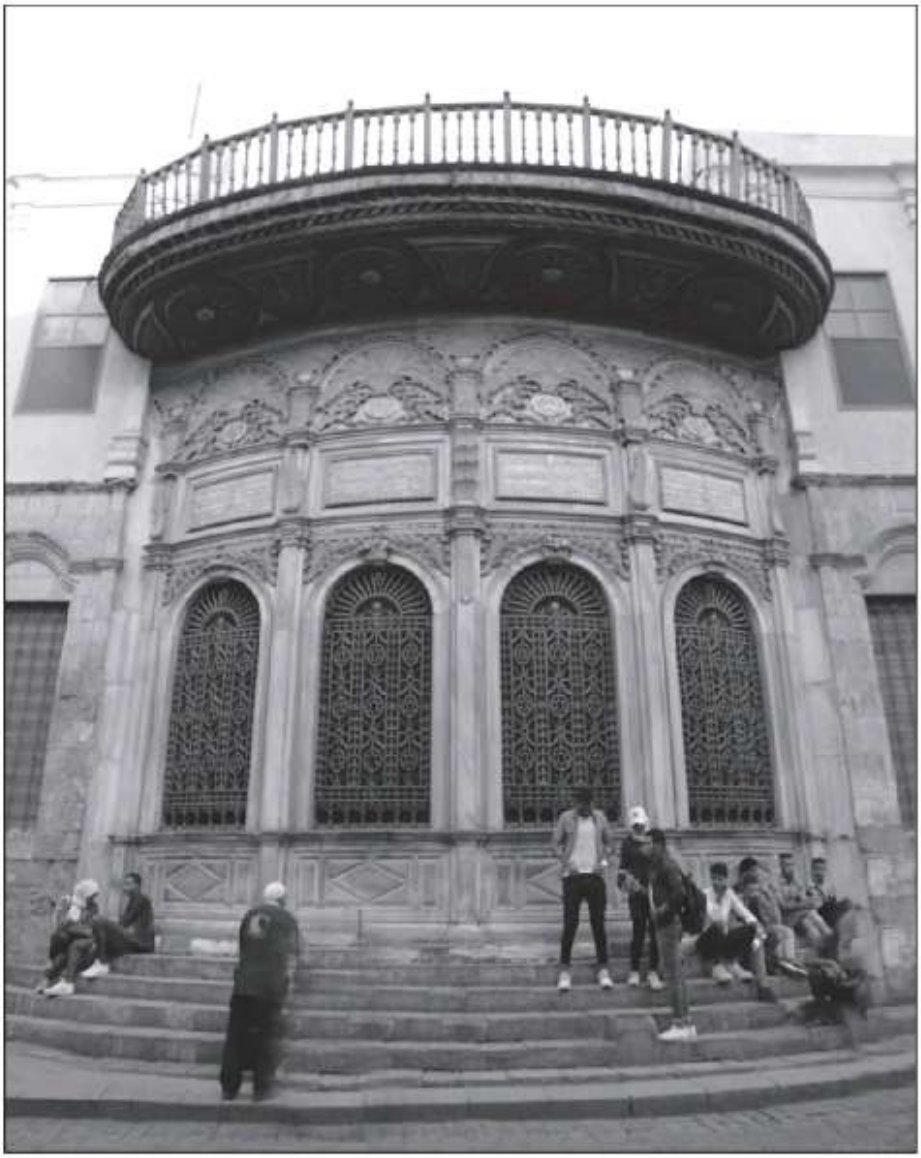

(سبيل محمد علي باشا ـ النحاسين)

عن روح «الودنلي» في اللبودية..

صحيحٌ أنه لا تتوافر لدينا أي معلومات عن حياة محمد أفندي طُوبال الودنلي قبل وصوله إلى مصر سنة ١٨٠٠م، رفقة الصدر الأعظم يوسف باشا، ولا نعرف الأسباب التي جعلته يترك موطنه «وَدين» على نهر الدانوب في بلغاريا، وكانت تابعة حينها للدولة العثمانية، حتى إننا نجهل سبب إصابته بالعرج الذي أكسبه اللقب الذي اشتُهر به طول حياته، وهو «طوبال»، أي الأعرج!

لكننا قطعًا نعرف كثيرًا عن حياته في مصر، ونعرف بالطبع تفاصيل نهايته المروِّعة.

نعرف مثلًا أن الوالي محمد باشا خسرو قد جعله كاشفًا (محافظًا) لأسيوط. وبعد أن تولى محمد علي باشا حكم مصر أصبح محمد أفندي طوبَال ناظرًا لمهمات الدولة. وهو المنصب الذي نفهم من «الجبرتي» أنه

كان بالغ الأهمية حينها؛ فقد كان مسؤولًا عن تصنيع المهمات العسكرية، كالخيام والأسلحة ولوازم الحرب، وكان تحت إدارته جيشٌ من العمال والصناع، إضافةً إلى إشرافه على مصنع البارود. لقد كان محمد أفندي الودنلي بمثابة وزير للإنتاج الحربي في تلك الفترة المبكرة من حكم محمد علي.

والذي نفهمه من كلام «الجبرتي» أن محمد أفندي الودنلي لم يكُن مجرد إداري بارع فحسب، بل كان ذا عقلية هندسية نادرة، فهو من أصلح سور مجرى العيون الذي ينقل المياه من النيل إلى القلعة بعد أن تهدم وتوقف استخدامه قرابة عشرين سنة.

ويبدو أن «الودنلي» كان مقرَّبًا ومسموع الكلمة عند محمد علي، فكان يمازحه ويدخل عليه بلا استئذان، وكان يتوسَّط لدى الباشا مرارًا لإبطال مظالم ناءت بها ظهور البسطاء؛ فبوساطةٍ منه، مثلًا، أنهى محمد علي تجاوزات «القلقات»، فقد دأب القلقات ـ وهم حرَّاس الطرق ـ على نهْب سلع الناس، فكانوا يستولون على جزء من البضائع كـ«فِردة» كي يسمحوا للعابرين بالدخول أو الخروج من القاهرة!

أقلقت تلك المكانة، التي يحظى بها محمد أفندي الودنلي، الرجل الثاني في مصر، الكتخدا محمد بك لاظ، نائب محمد علي، الذي ساورته الشكوك دومًا في أن «الودنلي» يسعى إلى أن يحل محله، ومن هنا أخذ الكتخدا يخطط في هدوء للإيقاع بـ«الودنلي» حتى استطاع أن يقصيه عن منصبه سنة ١٨١٠م.. ولسنتين بعدها، قبعَ «الودنلي» في بيته بلا وظيفة، منشغلًا فقط بأعمال البر والتقوى، وبصقل معارفه وخبراته بالقراءة والاطلاع، فكان إذا سمع عن حِرفي بارع، استضافه في بيته لأسابيع أو شهور متكفلًا بنفقاته كاملة حتى يراه وهو يعمل ويكتسب مهارته.

وعندما سئم «الودنلي» من إقامته بلا عمل حقيقي في مصر، استأذن محمد علي في العودة نهائيًّا إلى بلاده، فأذن له بالرحيل، وكان من الممكن أن ينتهي الأمر وتُطوى صفحته في مصر بذلك، لولا أن تدخل محمد بك لاظ من جديد، فوسوس للباشا أن «الودنلي» إذا خرج من مصر فلن يذهب إلى بلاده كما يدَّعي، لكنه سيتجه فورًا إلى إسطنبول ليفضح مظالم محمد علي وأفعاله عند السلطان العثماني، وربما يفقد الباشا منصبه في مغامرة كهذه، فبات مصير محمد الودنلي محسومًا..

وعلى الرغم من أن «الودنلي» قد بلغه، وهو في رشيد، أن الباشا قد أمر بقتله، فإنه قد استبعد الأمر تمامًا؛ فلقد ودَّع محمد علي وداعًا حارًّا منذ أيام قليلة وقبَّل يديه حينها ومازحه، فكيف يأمر بقتله في الإسكندرية؟!

ولم يتطرق إليه الشك أبدًا حتى عندما دعاه حاكم الإسكندرية للغداء في رأس التين، ربما لم يصدق أخيرًا إلا عندما أحاط به الجنود على الشاطئ وأشهروا أسلحتهم في وجهه، لم يجد مفرًّا لحظتها إلا البحر، فألقى بنفسه فيه محاولًا الهرب، فأطلقوا عليه النار، ثُمَّ أخرجوه وأجهزوا عليه، وصادروا صناديق كتبه، وسمحوا لأبنائه بالسفر بعد ذلك!

المسافة بين جامع السيدة زينب ودرب الجماميز كانت تُعرف قديمًا بشارع «اللبودية». في هذا الشارع، الذي أصبح اليوم جزءًا من شارع بورسعيد، أتنسَّم روح محمد أفندي طوبال الودنلي تسري حيث عاش. كيف لا وقد وصفه «الجبرتي» بأنه «المهذب في نفسه، النادر في أبناء جنسه»، وأنه كان أحسن من رأى في دولة محمد علي باشا كلها!

الأزهري الوحيد الذي رفض أن يشهد زورًا!

تحسَّر المؤرخ عبد الرحمن الرافعي من قلة المعلومات التي نقلها لنا «الجبرتي» عن عمر مكرم، فقد اعتاد «الجبرتي» أن يُسهب في تراجم مشاهير عصره بعد وفاتهم، ولأن «الجبرتي» نفسه قد تُوفي أولًا، فحُرمنا بذلك من أن نحظى بمعلومات وافية عن السيد عمر مكرم. ومع ذلك، فإن ما ذكره «الجبرتي» في ثنايا تاريخه عن «مكرم» كان كافيًا للغاية لنعلم من أي معدن ثمين قُدّ هذا الرجل.

ويكفينا أنه كان في طليعة من تصدروا لخلع خورشيد باشا، وأنه هو بذاته من قدَّم حكم مصر على طبق من ذهب لمحمد علي باشا، على الرغم من أن عمر مكرم كان يضع نفسه بذلك في مواجهة الدولة العثمانية، وكان من الوارد جدًّا أن يفقد منصبه كنقيب للأشراف لمخالفته

السياسة العثمانية، فلا يجب أن ننسى أن منصب نقيب الأشراف في مصر أحد المناصب التي يتم تعيين صاحبها من إسطنبول، أو على الأقل تُقر الدولة العثمانية من اختاره الأشراف لتولي نقابتهم، وبالتالي فقد كان «مكرم»، بطريقة أو بأخرى، موظفًا عثمانيًّا رفيع المستوى، وكان من الممكن جدًّا أن يعتزل الخلافات وينزوي في داره حتى ينقشع غبار الفتن وبعدها سيجد لنفسه مكانًا دائمًا بجوار الحاكم الجديد، لكن «مكرم» ضرب عرض الحائط بذلك كله وآثر أن يكون في مقدمة صفوف الثوار.

وعندما تجمهر أهالي القاهرة في الأزهر الشريف يضجون من المظالم والضرائب التي فرضها محمد علي باشا، أبطل الشيوخ التدريس في الأزهر وأرسلوا إلى عمر مكرم ليقرروا جميعًا ما يجب عليهم فعله، واتفقوا أن ينبذوا ما بينهم من خلافات ويرسلوا إلى الباشا عريضة بمطالب الناس.

كان محمد علي يُدرك أن مستقبله في مصر رهين بعمر مكرم وكبار شيوخ الأزهر الذين أوصلوه للحكم، فعمل على تفريق شملهم، مستغلًّا ما كان بينهم من حزازات ومنافسات على المناصب ونظارات الأوقاف التي كانت تدر مبالغ هائلة على نُظَّارها.

أما الذي لعب دورًا في الإيقاع بعمر مكرم فكان ناظر المهمات محمد أفندي الودنلي!

فبإيعاز من محمد علي، استدعى «الودنلي» الشيخين «المهدي» و«الدواخلي» إلى داره؛ حيث أقنعهما أن في الأمر لَبْسًا ومبالغات لا أصل لها، وكان ثلاثتهم ـ كما يذكر «الجبرتي» ـ يحقدون على السيد عمر مكرم ويرجون الخلاص منه.

بعدها، صعد «المهدي» و«الدواخلي» إلى القلعة نيابةً عن باقي المشايخ، وهوَّنا من شأن عمر مكرم قائلين إنه «ليس إلا بنا، وإذا خلا عنا فلا يسوى بشيء»!

وعندما عجز الباشا عن إثناء عمر مكرم عن موقفه المعارض لسياسته بالترغيب حينًا وبالترهيب حينًا آخر، جمع الشيوخ وأعلمهم أنه قد عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف وأمر بنفيه إلى دمياط. وكان له مطلب واحد عند الشيوخ: مجرد شهادة صغيرة في حق عمر مكرم.. شهادة زور!

فقد كان نقباء الأشراف في ولايات الدولة العثمانية يُعيَّنون بواسطة مؤسسة شيخ الإسلام في إسطنبول، وشيخ الإسلام هو أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية، وهو المختص بتعيين القضاة والمفتين ونقباء الأشراف في الدولة بأسرها، وكان ضروريًّا لتبرير عزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف أن يكتب العلماء عريضة يرفعونها إلى السلطان العثماني تتهم «مكرم» بعدة مثالب أوجبت عزله عن النقابة.

تضمنت لائحة الاتهام أن «مكرم» قد أدخل عددًا من المسيحيين واليهود إلى نقابة الأشراف، وأنه يتآمر مع المماليك ضد محمد علي والدولة العثمانية!

وكان الوحيد الذي امتنع عن شهادة الزور هو الشيخ أحمد الطحطاوي، مفتي الحنفية وشيخهم في مصر.

يُعلِّق «الجبرتي» على موقف «الطحطاوي» وسائر المشايخ من عمر مكرم بعبارة بليغة؛ حيث يقول: «وأما السيد أحمد فإنه اعتكف في داره لا يخرج منها إلا إلى الشيخونية بجواره، واعتزلهم وترك الخلطة بهم،

وتباعد عنهم وهم يبالغون في ذمه والحط عليه، لكونه لم يوافقهم في شهادة الزور، والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلًّا ظليلًا عليهم وعلى أهل البلد، ويدافع ويرفع عنهم وعن غيرهم، ولم تقُم بعد خروجه من مصر لهم راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض».

وربما تغيَّر تاريخ محمد علي في مصر كما نعرفه اليوم إذا لم يتكالب كبار علماء الأزهر على الدنيا بهذا الشكل المهين.

* * *

لا نهاية للمفارقات التي يلقيها التاريخ هازلًا في وجوهنا؛ فحين قرر محمد أفندي الودنلي، ناظر المهمات، الذي سعى إلى الإيقاع بـ«مكرم»، أن يعمّر المسجد الذي يجاور داره في اللبودية، وقرر له أحد علماء الأزهر ليلقي فيه درسًا يوميًّا، لم يجد «الودنلي» أنسب من الشيخ أحمد الطحطاوي، العالم الأزهري الوحيد الذي سيأبى بعد ذلك أن يخون السيد عمر مكرم!

الأنبياء وارض مصر

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

أزمة الصابون في سبيل نفيسة البيضا!

للست نفيسة البيضا حكايات لا أول لها ولا آخر..

حكايات مع ثاني أزواجها مراد بك الذي تآمر على التخلُّص من زوجها الأول ليحظى بها، وظلَّت هي، مع ذلك، مخلصةً له حتى النهاية.

وحكايات مع نابليون بونابرت، وأخرى مع محمد علي باشا الذي لم يرحم شيخوختها، بل وحكايات مع نجيب محفوظ نفسه الذي اختار أن يُعَنون الجزء الأخير من ثلاثيته باسم وكالتها لبيع السكر «السكرية»!

حكايات نفيسة البيضا حدث بعضها في حياتها وبعضها بعد وفاتها؛ فالأماكن تهب أصحابها حياةً بعد حياتهم، وامتدادًا في الزمان والمكان يدوم بدوام البناء، وعالم الحكايات لا يلتزم المنطق ولا القواعد الجامدة

ولا يعبأ كثيرًا بالتسلسل التاريخي، وكثيرًا ما تقرر الحكايات بنفسها متى ستُحكى وكيف!

تمامًا كحكاية أزمة الصابون التي حدثت سنة ١٨١٥م.

حتى عصر محمد علي، كان الصابون يتم استيراده من الشام، حيث تعتمد صناعته على زيت الزيتون المتوافر هناك. وبالتالي كان الصابون يشح في الأسواق ويرتفع ثمنه جدًّا إذا تأخرت القوافل التي تنقله من الشام إلى مصر، كان الصابون وقتها شديد الأهمية، ففي عصر ما قبل «الشامبو» و«الشاور جل» ومسحوق الغسيل، كان الصابون يُستخدم وحده في كل ما له علاقة بالنظافة، بدايةً من الاستحمام وحتى غسيل الملابس.

لذلك، فقد كانت تجارة الصابون رائجة للغاية، وهو ما جعل محمد علي يفرض على تجار الصابون مزيدًا من الضرائب باستمرار، وكان يطالبهم أحيانًا بتقديم قروض إجبارية للحكومة!

وبالتالي، فلم يكُن أمام تجار الصابون سوى رفع ثمن الصابون.. وعندما اشتكى الناس من غلو سعر الصابون لمحمد بك لاظ كتخدا ـ أي نائب ـ محمد علي، قرر أن يُحدد سعر الصابون جبريًّا حتى لا يتلاعب التجار في سعره، لكن الأزمة لم تنتهِ أيضًا؛ فالذي حدث أن «سبُّوبة» الصابون قد أعجبت الجنود، فكانوا يتكالبون على تجار الصابون ويشترون كل الصابون المعروض بسعر رخيص، ثُمَّ يبيعونه للناس بعد ذلك بسعر أعلى!

كرر الناس شكواهم من جديد لمحمد بك لاظ، ومع أن الكتخدا هو الرجل الثاني في مصر، فلم يفكر أبدًا في معاقبة الجنود أو منعهم

من الاتجار في الصابون، فقط تفتق ذهنه عن فكرة لوذعية؛ فقد قرر أن يجلس باعة الصابون داخل سبيلين، أحدهما داخل باب زويلة والآخر خارجه، بحيث يدفع الناس ثمن الصابون عبر شباك السبيل المعدني، ثُمَّ يسلمهم الباعة الصابون عبر الشباك أيضًا، وبالتالي فلا يصبح هناك مجال لتلاعب الجنود.

وما حدث أن العساكر قد تكاثروا على السبيل ومنعوا الناس من شراء الصابون، وظل الحال على ما هو عليه؛ يشتري العسكر الصابون بسعر رخيص ويبيعونه بسعر مرتفع للناس.

واستمرت معاناة المصريين مع الصابون حتى احتكر محمد علي استيراد الصابون كله لحسابه، ثُمَّ قام بزراعة مساحات شاسعة من الأراضي بشجر الزيتون في بلبيس بالشرقية، وأنشأ مصنعًا ضخمًا لصناعة الصابون في جامع الظاهر بيبرس، ليصبح بذلك صانع الصابون وتاجره الأوحد في مصر!

إذا سِرتَ يومًا في الغورية ووصلت إلى باب زويلة، فسيكون عن يسارك حينها سبيل نفيسة البيضا، هنا كان يُباع الصابون، وهنا كان العسكر يتحلَّقون حول السبيل ليمنعوا غيرهم من الشراء، قبل أن يستولي الباشا على صابون البلد بأكمله!

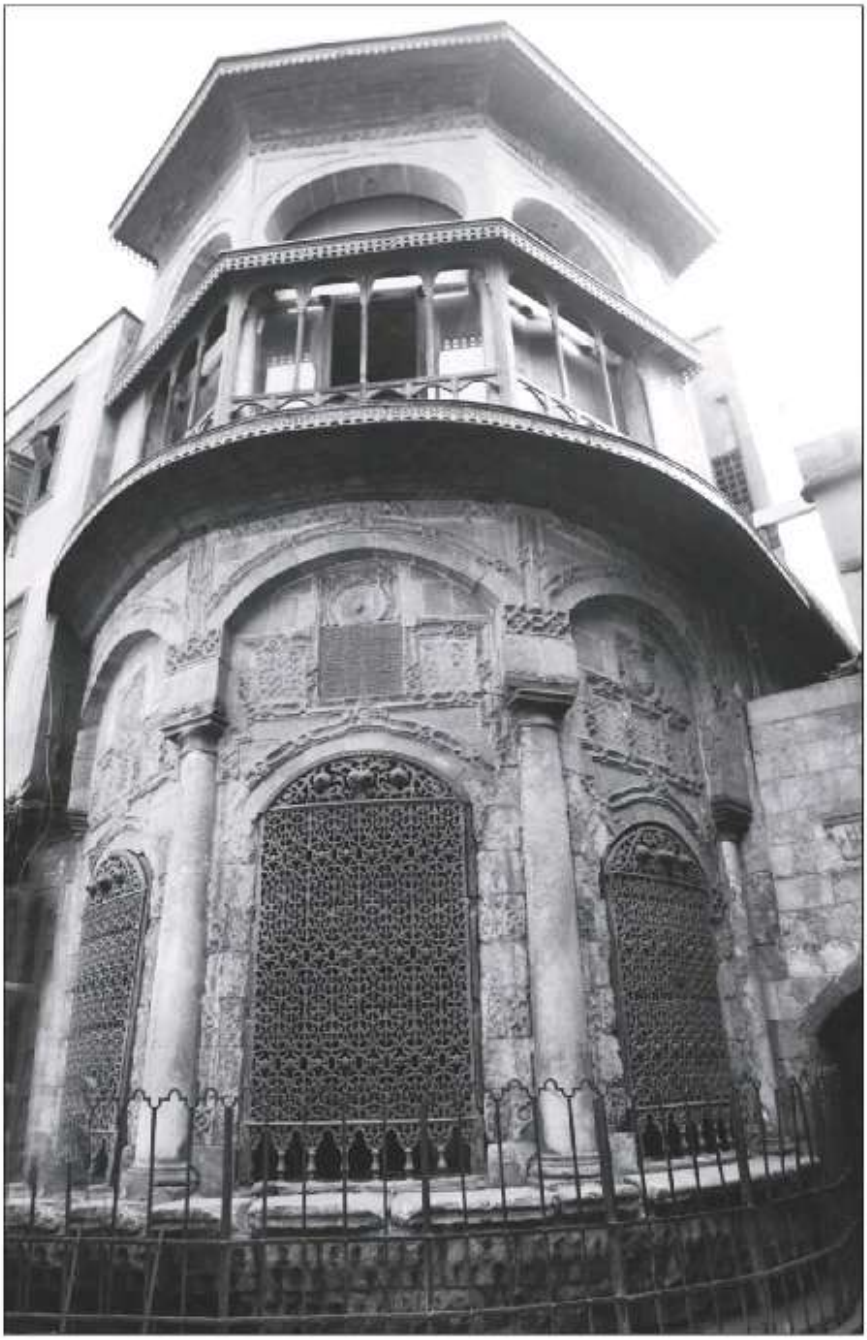

(سبيل نفيسة البيضا)

حرق الدرويش الموصلي في شارع بين السيارج!

لا نعرف الكثير عن الدرويش الموصلي..

لا نعرف أصله ولا فصله، ولا نعرف أين تعلم هذا كله ومتى، حتى اسمه نعرفه بالتقريب: حسن أفندي، وشهرته الدرويش الموصلي!

كل ما نعرفه عنه بضع كلمات متناثرات هنا وهناك في تاريخ «الجبرتي»، وحتى كلام «الجبرتي» عنه لا نعلم يقينًا إن كان يقصد به المدح أم الذم!

فكيف مثلًا يبالغ «الجبرتي» في الثناء على عبقريته في الرياضيات والهندسة واللغات وعلوم كثيرة أخرى، وفي الوقت ذاته يطعن في دينه من غير مبرِّر وينقل روايات بلا دليل على أنه كان زنديقًا ملحدًا!

لقد كان عبد الرحمن الجبرتي يُقدِّر العلم جدًّا، وكان يحرص على زيارة

المجمع العلمي الذي أسسه علماء الحملة الفرنسية، وحكى في تاريخه عن العجائب التي جعله العلماء الفرنسيون يراها هناك، والأجهزة الدقيقة والتجارب العلمية التي بدت له كالسحر، والتي وصفها «الجبرتي» بأنها «لا تسعها عقول أمثالنا»، أي أنها فوق قدرته شخصيًّا على الاستيعاب، على الرغم من أنه كان يُعَدُّ من نخبة مثقفي عصره. بل إنه لم يُبدِ أي امتعاضٍ أو تعقيب سلبي عندما جعلوه يرى لوحات مرسومة تُصوِّر النبي محمدًا، صلى الله عليه وسلّم، والصحابة من حوله!

فما الذي دعا «الجبرتي» إذًا إلى وصم الدرويش الموصلي بالإلحاد؟!

ندرة المعلومات الموثقة عن الدرويش الموصلي تدفعنا إلى بعض الاجتهاد في جمع أجزاء «البازل» المتناثرة هنا وهناك للوصول إلى أقرب صورة ممكنة له؛ فصحيح أن «الدرويش» كان متخصصًا في الحساب والهندسة، حيث عهد إليه محمد علي باشا بتأسيس «المهندسخانة»، واستقدم له مهندسين أوروبيين لكي يعاونوه في مهمته، لكن المؤكد أيضًا أن الدرويش الموصلي كانت ثقافته دينية بالأساس، فأي طالب علم كان يبدأ دراسته بالعلوم الشرعية أولًا قبل أن يتخصص فيما يحلو له. أي أنه لم يكُن مجرد «صنايعي» محترف أو صاحب عقلية عبقرية وحسب، الأخطر من ذلك أنه كانت له آراؤه الخاصة في الدين؛ ففي مجتمع يحوي جميع الملل والمعتقدات والطوائف، كالمجتمع المصري حينها، لم يكُن هناك أي مبرر لـ«الجبرتي» لأن يتطرق لما يؤمن به شخص عبقري في الرياضيات والهندسة، إلا لو كان هذا الشخص يُجاهر بمعتقداته بوضوح. ومع أننا لا نعرف شيئًا عن طبيعة أفكار الدرويش الموصلي، فإنه من المؤكد أنها كانت سابقة لعصرها جدًّا، وأنها لم تكُن مجرد تقليد لـ«كلام الملحدين وشكوك المارقين» كما يقول «الجبرتي»، وإلا لتم تكفيره

والتخلُّص منه فورًا حينها، وهو ما لم يحدث قط.

الأمر الذي يدعونا إلى أن نقول: إن الدرويش الموصلي كان يدخل في مناقشات مع مشايخ عصره، وغالبًا كان يُفحم مناظريه في مثل هذه السجالات، والدليل أن أحدًا لم يجرؤ على رميه بالإلحاد والزندقة إلا بعد وفاته!

والظاهر أن العداوة بينه وبين المشايخ كانت عنيفة جدًّا، لدرجة أنه بعد موته راجت شائعاتٌ كثيرة تقول إن البعض قد رأوه في المنام وهو يُعذَّب في نار جهنم!

كما أشاعوا عنه امتلاك كتاب ابن الريوندي، وهو أشهر زنديق عرفته الثقافة الإسلامية، وكانت تلك الشائعة من القوة لدرجة أن محمد بك لاظ، نائب محمد علي باشا، أمر بتفتيش كتب الدرويش الموصلي التي تركها، وبالطبع لم يجدوا أثرًا لهذا الكتاب المزعوم.

بعد أن تمرَّ على جامع الحاكم بأمر الله، سيصبح شارع بين السيارج عن يمينك، سِر فيه قليلًا حتى تقابل عن يسارك جامع البلقيني، في هذا الجامع دُفن حسن أفندي الدرويش الموصلي، المثقف الموسوعي الذي عاقبه المشايخ بعد وفاته بأن أدخلوه نار جهنم!

حكايات بيت الكريتلية

من المؤكد أنك تعرف كيف تصل إلى جامع أحمد بن طولون، إذًا فأنت بالتالي تعرف الطريق إلى بيت الكريتلية الذي يجاور جامع ابن طولون تمامًا..

لا تدعُهُ من فضلك ببيت جاير أندرسن، فـ«أندرسن» ليس إلَّا أفَّاقًا إنجليزيًّا استولى على بيت الكريتلية لعدة سنوات، ووضع فيه مجموعة التحف والآثار التي جمعها بكل الطرق الممكنة طول حياته؛ فهو في أفضل الظروف ليس إلا عابر سبيل في حياة بيت الكريتلية..

وبيت الكريتلية، الذي عُرف بذلك لأن صاحبته ترجع أصولها إلى جزيرة كريت، أعظم وأهم من شخص «أندرسن» بكثير. وبالنسبة لي، فأهم ما يميِّز بيت الكريتلية هو أنه شاهد عيان على التاريخ الأسطوري للقاهرة، الذي لا يقل أهمية بحال عن تاريخها الحقيقي.

t.me/alanbyawardmsr

لا تتعجل في الولوج إلى البيت، ولاحظ قبلًا أن عن يمينك بابًا صغيرًا مغلقًا دائمًا يجاور باب بيت الكريتلية، وراء هذا الباب الصغير مقام هارون الحسيني..

هذا المقام مُغلق منذ زمن بعيد، أما أيام جاير أندرسن، فكان لهارون الحسيني شنّة ورنّة ومريدون مخلصون، وكان للمقام خادم عجوز اسمه سليمان الكريتلي، يدَّعي أنه آخر من تبقى من نسل الكريتلية، صاحبة البيت، وهو من سيحكي لـ«أندرسن» الحكايات المدهشة لبيت الكريتلية، مع الأخذ في الاعتبار طبعًا أن تلك الحكايات لا تُعبِّر عن رؤية سليمان الكريتلي وحده بقدر ما تُعبر عن الأساطير والحكايات الشعبية الرائجة في زمانه في محيط بيت الكريتلية.

خذ عندك مثلًا حكاية جبل «يشكر» الذي بُني عليه البيت وجامع أحمد بن طولون.. يروي سليمان الكريتلي أنه قد سُمِّي بذلك لأنه الجبل الذي كان إبراهيم الخليل سيذبح عليه ابنه إسماعيل، وحين فداه الله بالذبح العظيم «شكرَ» إبراهيم ربه!

وهنا ألقى نبيُّ الله موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان عظيم التهم ثعابين السحرة جميعًا، بل إنه على جبل «يشكر» رسَت سفينة نوح، وليس على الجودي أو أرارات مثلًا، وانتهى الطوفان الذي أغرق العالم في بيت الكريتلية، فقد ابتلعت بئر الوطاويط التي تقع في البيت مياه الطوفان كلها لكي تبدأ الحياة من جديد! فبئر الوطاويط هذه ليست بئرًا عادية، إنها بئر يسكنها سلطان الوطاويط وبناته السبعة ومعهم كنزهم المسحور، وسلطان الوطاويط هو من دفع تكاليف بناء بيت الكريتلية، فقد عانى ذلك السلطان كثيرًا ضجيج الشارع، فطلب من جد سليمان

t.me/alanbyawardmsr

الكريتلي أن يبني بيتًا يحيط بالبئر، ويحجب عنه صخب الطريق، وسلطان الوطاويط هو من تكفَّل بمصاريف البناء من كنزه المسحور!

أخذ جاير أندرسن هذه الحكايات وطلب من أحد الحرفيين المصريين أن ينقشها له على أطباق نحاسية، معروضة حاليًّا في سبيل بيت الكريتلية، ولم ينسَ «أندرسن» أن يجعل هذا الحرفي يضيف نقشًا لشجرة غريبة الشكل على كل طبق من الأطباق النحاسية، هذه الشجرة هي شعار عائلة «أندرسن»، وكأنه يريد أن يضع بصمته على العالم الخيالي للبيت كما وضع يده على البيت كله!

والمفارقة أن الحرفي الذي نقشَ الأطباق كان ضعيفًا في اللغة العربية، فخرجت العبارات التي كتبها ركيكة للغاية؛ فمن ضمن حكايات البيت: أن الناظر إلى مياه بئر الوطاويط في ليلة اكتمل فيها القمر بدرًا، يرى صورة محبوبه على مياه البئر، وهو ما كتبه الحرفي بهذه الطريقة: «إذا كان بنت بكر أو ولد بكر لعضهوش كلب ولحرأتوش النار أو أطعت سكينة يده بيبس في مية بير الوطواط في بيت الكريتلية ليلة القمر مزهزه بإذن الله هوة يشوف وش الحبيب بتاعو»!

* * *

t.me/alanbyawardmsr

ستعاني كثيرًا إذا قررت أن تتعامل مع القاهرة كأنها مدينة عادية كباقي مدن الدنيا..

فكثيرًا ما أشعر أن الأساطير والحكايات التي أقيمت عليها المدينة ما زالت تعيش تحت جلدنا بطريقة أو بأخرى، وأن كل العبث والجنون الذي يحيط بنا هو جزء أصيل من القاهرة، وإلا فماذا تنتظر من مدينة أُسست على أنقاض حكايات مدهشة كحكايات بيت الكريتلية؟!

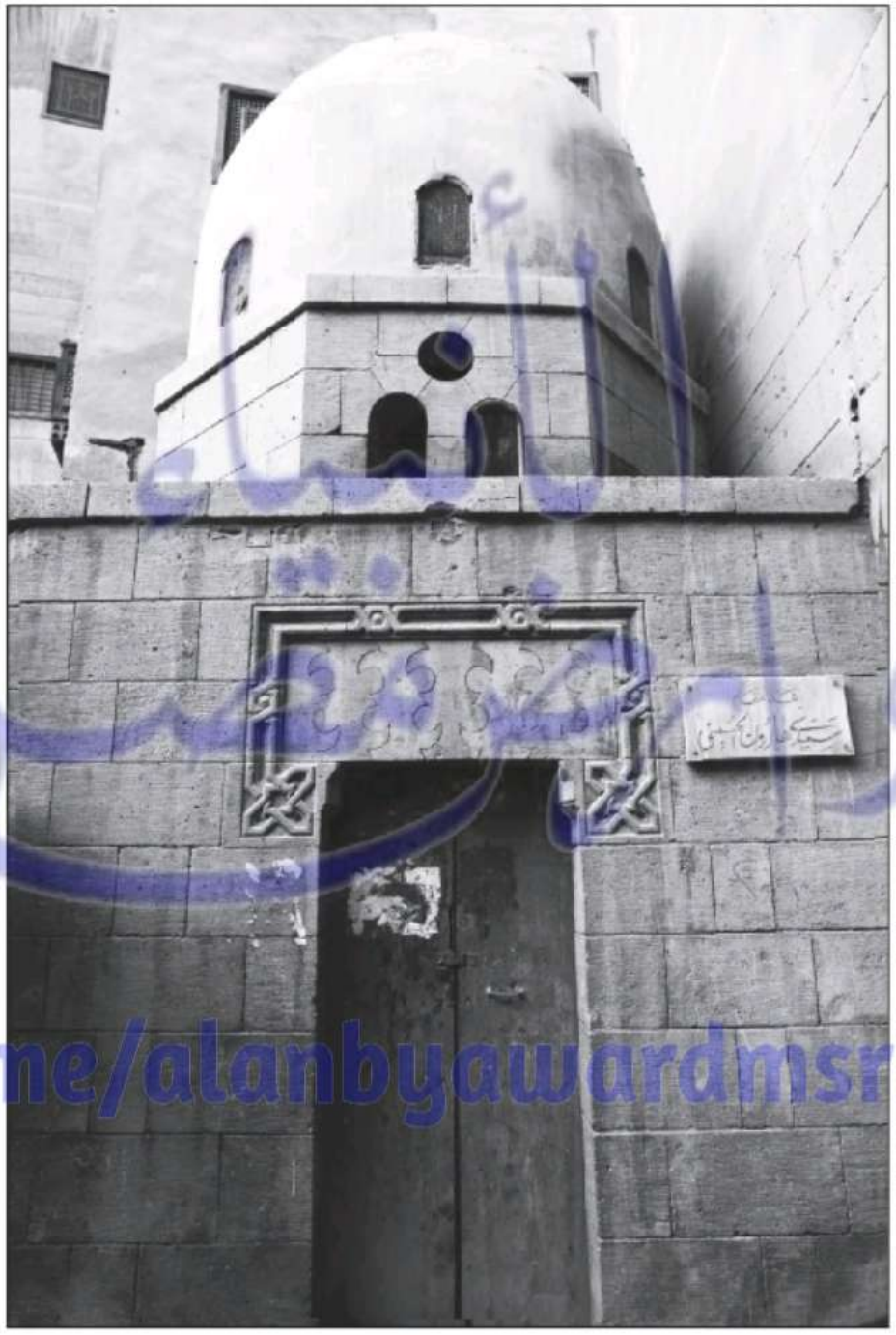

(ضريح هارون الحسيني)

t.me/alanbyawardmsr

التحولات العجيبة لجامع بشتاك!

للتاريخ ألف وجه..

يبدو لنا التاريخ أحيانًا مُغرقًا في الحكمة والمعرفة، ويتجلَّى أحيانًا أخرى كعمدة قروي عجوز، يجلس متكئًاعلى أريكته القديمة ينفثُ دخان المعسِّل وينطلق لسانه بحكايات ليس لها أول من آخر تبدو للوهلة الأولى شديدة التنافر ولا رابط بينها..

كحكاية الأمير بشتاك الناصري مثلًا..

كان «بشتاك» المملوك المدلل للناصر محمد بن قلاوون، كان سرُّ هذه الحظوة أن أحد النخاسين أخبر «الناصر» أن «بشتاك» قريب الشبه جدًّا من ملك التتار بوسعيد، حفيد جنكيز خان، وكان ذلك مرضيًا لغرور الناصر محمد بن قلاوون للغاية، أن يكون أحد مماليكه شبيهًا بملك التتار!

t.me/alarbyawardmsr

كان «الناصر» يُغدق على «بشتاك» الأموال بلا نهاية، وهبه في يوم واحد فقط مليون درهم، بخلاف إقطاعه، فقد كانت الدولة تُقطِع كل أمير مملوكي إقطاعًا يُدر على صاحبه دخلًا، ويختلف حجم هذا الإقطاع حسب مكانة الأمير وأهميته، وكان إقطاع «بشتاك» هو ما نعرفه اليوم بمحافظة الشرقية كلها!

أما ما يُجمِع عليه كل من ترجموا لـ«بشتاك» فهو أنه كان نجس الذيل، لم تسلم امرأة منه أبدًا!

بسجعه اللطيف، يُلخص الأمرَ المؤرخُ ابن أيبك الصفدي، واصفًا «بشتاك» بأنه: «لم يعفّ عن مليحة ولا قبيحة، ولم يدع واحدة تفوته ولو كانت بفردة عين سليمة»، أي حتى العوراء قليلة الجمال لم تسلم من تحرُّشِه.

عاش «بشتاك» حياة غاية في الرفاهة تليق بالمملوك المقرب لأعظم سلاطين المماليك، فبنى لنفسه قصرًا لا مثيل له في أهم شوارع القاهرة، ولكي يُكمل الأبهة والوجاهة ويضمن لنفسه الخلود في الدنيا والآخرة، قرر أن يبني جامعًا!

t.me/alanbyawardmsr

ومع ذلك كله، فعندما يموت محمد بن قلاوون، يكون «بشتاك» أول واحد من أمرائه يتم اعتقاله، ويُسجن بعض الوقت في الإسكندرية قبل أن تُطوى صفحته للأبد ويُقتل هناك.

تدور الأيام دورتها، ويبني الأمير مصطفى فاضل قصره الضخم، وحين تُلاحظ ألفت هانم، أم الأمير مصطفى فاضل، أن ثمة جامعًا قديمًا بجوار القصر تُقرر أن تجدده وتسميه باسم ابنها، وهكذا تحوَّل جامع «بشتاك» إلى جامع مصطفى فاضل!

الأمير مصطفى فاضل هو حكاية أخرى، كان الأخ الأصغر للخديوي إسماعيل، وبالتالي فكان من المُقرر أن يحكم مصر بعده، لكن «إسماعيل» لم يُكِن مشاعر الود لأخيه، ربما يرجع هذا إلى خلافات عنيفة سابقة بين أم إسماعيل وضرتها أم مصطفى فاضل تركت أثرها على أبنائهما.

حدة الخلافات بين الأخوين جعلت مصطفى فاضل وأسرته يتركون مصر بما فيها وينتقلون للعيش في فرنسا، وهناك ضغط عليه «إسماعيل» ليبيعه «فاضل» كل أطيانه في مصر، قبل أن يسدد الخديوي إسماعيل ضربته الأخيرة لأخيه عندما استطاع تغيير نظام وراثة العرش ليصبح في نسله هو فقط.

وعندما مات مصطفى فاضل في تركيا، نُقل رفاته بعد عدة سنوات ليدفن في الجامع الذي بنته أمه، تمامًا كما سيحدث بعد ذلك مع رفات الخديوي إسماعيل!

ومن الوارد جدًّا أن تكون خوشيار هانم، أم الخديوي إسماعيل، قد غارت من ضرتها ألفت هانم، فقررت أن تبني جامعًا أضخم من جامعها، أي أن جامع الرفاعي الذي أمرت ببنائه «خوشيار» قد يكون ثمرة لكيد الضرائر!

t.me/alanbyawardmsr

المهم أن اسم «بشتاك»، نجس الذيل، قد نُسي، تمامًا كما نُسي مصطفى فاضل، الذي لم يتبقَّ لنا منه سوى قصره الضخم الذي سيُقام على جزء منه بعد ذلك المدرسة الخديوية. أما المسجد فقد ارتبط اسمه بشخص آخر، هو قارئ مدهش كان يتلو القرآن هنا لأكثر من ثلاثين سنة، قارئ اسمه الشيخ محمد رفعت!

«الرفاعي» وسر الشباك!

الطريقة التي يخدعنا بها جامع الرفاعي ماكرة جدًّا؛ فهو يقدِّم لزوَّاره عشرات الحكايات الساحرة، عن خوشيار هانم التي بنته، وعن ابنها الخديوي إسماعيل، وعن الصلبان العملاقة التي تزيِّن واجهته، وعن الملك فؤاد والملك فاروق وشاه إيران.. حكايات ليس لها أول ولا آخر، وفي الوقت نفسه يخفي الجامع ببراعة حكايته الخاصة، حكاية «الرفاعي» نفسه!

يحكي الرفاعية أن أحمد الرفاعي الكبير قد جاءه الأمر الإلهي بأن يتجه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وأمام القبر الشريف، أخذته الجلالة، فأنشد هذين البيتين:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تُقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

t.me/alanbyawardmsr

وعلى الفور أخرج النبي يده من القبر لكي يقبِّلها «الرفاعي»!

تؤسس هذه الرواية الخارقة في واقع الأمر للهالة الأسطورية لأحمد الرفاعي ولطريقته الصوفية، ولأفراد أسرته الذين نشروا طريقته من بعده، كحفيده أحمد عز الدين الصياد مثلًا..

لا نعرف عن «الصياد» سوى ما يحكيه الرفاعية أنفسهم عنه، أنه ارتحل من العراق إلى الحجاز، ثم إلى مصر؛ حيث تزوج وترك زوجته حُبلى وأكمل رحلته إلى اليمن ثُمَّ إلى الشام، حيث استقر هناك.

في مصر، أنجبت زوجته ولدًا سمَّته «علي»، وماتت بعدها..

كبُر «علي» وبدأ يسأل عن أبيه الذي لم يرَه أبدًا، هنا تذكرت جدته شيئًا، أن زوج ابنتها قبل أن يسافر ترك لها عِقدًا، وطلب منها أن تعطيه لابنه عندما يشبُّ ويسأل عنه، ووضَّح لها بالضبط ما يجب على ابنه أن يقوم به: يربط العِقد على ذراعه، وينظر من شباك محدد من شبابيك البيت، وعندها سيرى أباه!

نفَّذ «علي» تعليمات أبيه بدقة، ربط العِقد على ذراعه، ونظر من الشباك الذي حدده له، فرآه بالفعل، قفز من الشباك في القاهرة، فوجد نفسه واقفًا مع أبيه عز الدين الصياد في حلب!

t.me/alanbyaguardmsr

وفي حلب، أخبره أبوه بالمهمة التي اختارها الله له، أن ينشر الطريقة الرفاعية في مصر، وقد كان..

وأصبح الشباك المدهش الذي يصل بين مصر والشام هو أشهر وأهم كرامة لعلي بن عز الدين الصياد، الذي عُرف من وقتها بـ«علي أبو شباك»!

وعندما قررت خوشيار هانم أن تبني مسجدها الضخم أمام مدرسة السلطان «حسن»، كان من الممكن جدًّا أن تنبش قبر «علي أبو شباك» وتسويه بالأرض، ليلحق بمئات الأولياء الذين كانوا ملء السمع والبصر، ثُمَّ طواهم النسيان، وكان من الممكن جدًّا أن تُسمي الجامع الجديد باسمها أو باسم ابنها الخديوي إسماعيل، لكن «خوشيار» اختارت أن تجدد زاوية «علي أبو شباك»، وأن تُدفن هي وذريتها في رحابه، ربما ليشملهم بشفاعته ويُسبغ عليهم بركاته!

أحداث التاريخ عادةً ما تكون مُضفَّرة بالأساطير والحكايات، ومن دون أن نعي عبقرية تلك الخلطة الساحرة سيصبح التاريخ مسخًا لا يختلف كثيرًا عن مقررات التاريخ المدرسية، وكثيرًا ما نكتشف أن تلك الحكايات التي تبدو لنا للوهلة الأولى شديدة التفاهة والعبثية، تلعب دورها من دون أن نشعر في صنع التاريخ وفي صياغة الحاضر أيضًا!

t.me/alanbyawardmsr

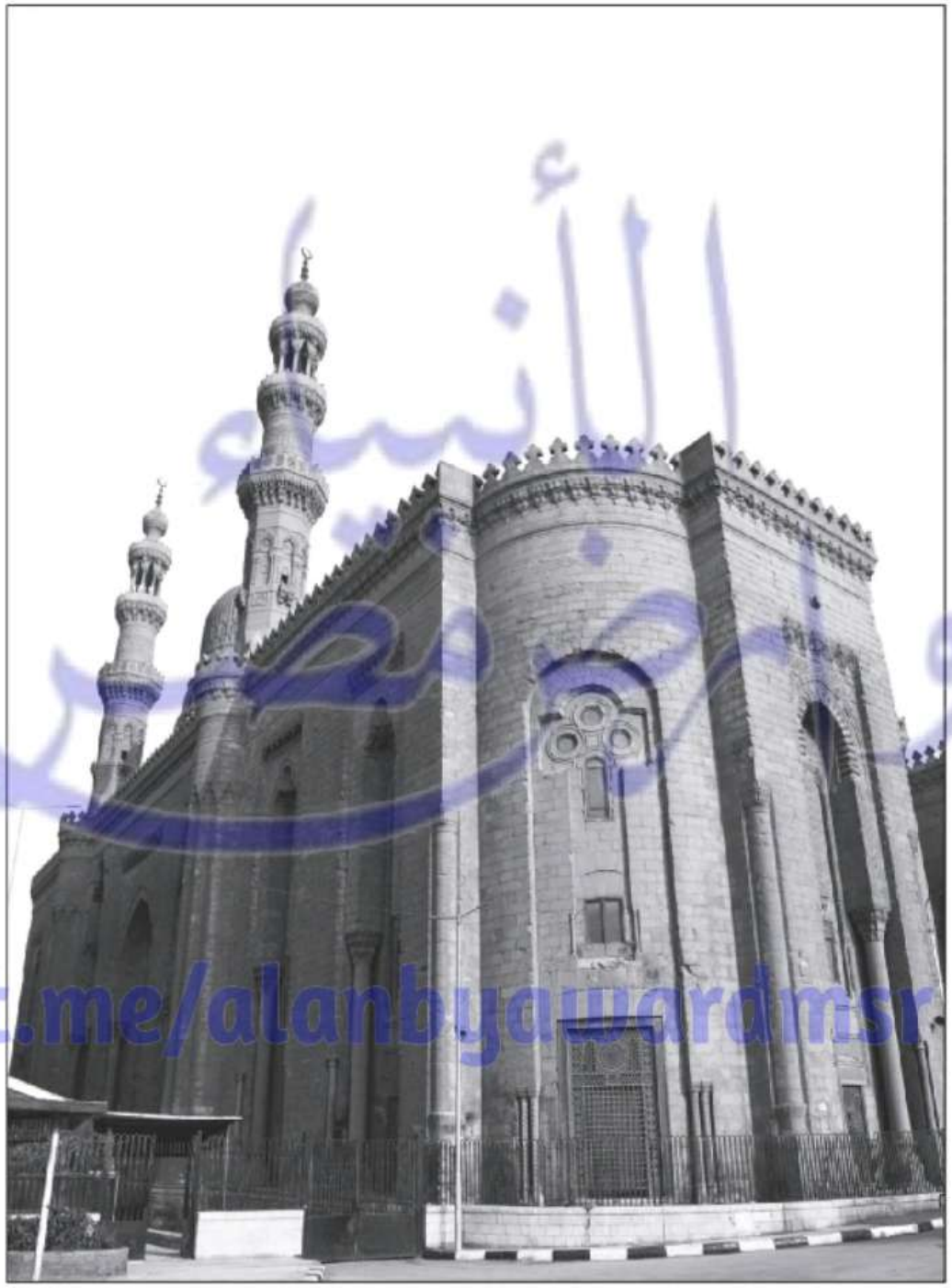

(جامع الرفاعي)

جاهين الخلوتي.. باع دنياه مقابل لحظة الخشوع!

من الشائعات الرائجة أن المماليك هم أسرى الحروب، أو أطفال خُطفوا من ذويهم وبيعوا بين أسواق النخاسة إلى أن وصلوا إلى مصر، أما الحقيقة المحزنة فهي أن أغلب المماليك قام أهلهم ببيعهم لتجار الرقيق تحت ضغط الظروف الاقتصادية الطاحنة، وفي حالات أخرى كان الشباب الأحرار هم من يُقدمون أنفسهم للنخاسين كي يبيعوهم كرقيق؛ ففُرص المماليك في مصر أكبر بكثير من فرص الأحرار!

عُرف المماليك الذين يصلون إلى مصر كبارًا بـ«الجلبان»، وكانوا مصدر إزعاج دائم؛ فالمماليك الأطفال كانوا يخضعون لنظام صارم ويتلقون تربية خاصة تهذب من سلوكهم، فيتعلمون القراءة والكتابة وطرفًا من العلوم الشرعية، إضافة إلى فنون القتال المختلفة، وعلى العكس من

t.me/alanbyawardmsr

ذلك فإن «الجلبان» كانوا مجرد مرتزقة، يشتريهم السلاطين لكي تقوى شوكتهم أمام منافسيهم، وإذا مات السلطان ورثهم السلطان الذي يليه.

كان جاهين الجركسي أحد هؤلاء «الجلبان»..

أما الذي غيَّر حياة «جاهين» في مصر بهذه الطريقة، فعلمه عند الله وحده!

ما نعرفه أن المملوك القادم من آخر الدنيا، الذي على الأرجح باع نفسه ليصبح من مماليك السلطان «قايتباي»، قد تخلَّى طواعية عن كل الفُرص المتاحة أمامه بما فيها الوصول إلى حكم مصر، وقرر فجأةً أن يعتزل الدنيا كلها، وطلب من السلطان «قايتباي» أن يُعتقه، والغريب أن «قايتباي»، المعروف ببخله وتقتيره الشديد، وافق أن يتخلَّى ببساطة عن أحد مماليكه «الجلبان». ومن حينها، ساح «جاهين» في البلاد، زار إيران ثُمَّ عاد إلى مصر، وأقام لنفسه في جبل المقطم مقبرة وخلوة يتعبَّد فيها إلى الله كقلايات الرهبان، واختار موضعها لتشرف على مقام سلطان العاشقين عمر بن الفارض، وكأن «جاهين» أراد ألَّا يغيب ابن الفارض عن عينيه أبدًا حيًّا أو ميتًا!

وحتى بعد أفول شمس المماليك، ظل «الخلوتي» موفور الحُرمة أيام العثمانيين، وكانت خلوته مزارًا للأمراء والوزراء، يقصدونها للتبرُّك، و«جاهين» غارق في عالمه لا يعبأ بأحد، ثمة كلمة بالغة الدلالة ينقلها «الشعراني» الذي كان معاصرًا له، حيث يقول: «كان كثير المكاشفة قليل الكلام جدًّا، تجلس عنده اليوم كاملًا لا تكاد تسمع منه كلمة».

وفي تلك الخلوة، ظل «جاهين» متوحدًا يناجي ربه طول ٤٧ سنة، وبعدها بنى ابنه جمال الدين جاهين هذا المسجد مكان خلوة أبيه، واختار أن يُدفن إلى جواره.

t.me/alanbyawardmsr

ومن بعيد، سيبدو لك جامع جاهين الخلوتي كما لو كان نابتًا بمعجزةٍ ما من جبل المقطم، أما إذا اقتربت منه فستتملكك رهبة وخشوع جارف، وسيلح عليك خاطر واحد: إذا كانت المنطقة بهذه الوحشة اليوم، فكيف كان حالها أيام «الخلوتي» منذ ٥٠٠ سنة؟! وستدرك، فيما يشبه الكشف، أن جاهين الخلوتي ربما قد باع دنياه كلها لكي يظل في هذا الخشوع طول حياته.

واليوم، لم يبقَ من جامع الخلوتي سوى أطلاله التي تزداد حالتها سوءًا بمرور الوقت. وأنت في طريق الأوتوستراد، املأ عينيك قدر الإمكان من جامع جاهين الخلوتي، فغالبًا ما سينهار قريبًا على رؤوس أهالي الأباجية الذين يعيشون تحته بالضبط..

(مسجد جاهين الخلوتي)

قبة ابن الفارض وسره الباتع!

للأماكن قواعدها الخاصة العصيّة غالبًا على الوصف أو التفسير..

كيف ستفسِّر مثلًا أن هناك أماكن مريحة وأخرى مُقبضة، أماكن تدعوك لكي تتمدد وتنام فيها شاعرًا بأنك في معيّة الله، وأخرى تنفرُ من مجرد الوقوف أمامها لدقائق؟!

حكايات الأشخاص تتحوَّل مع مرور الزمن إلى جزء من المكان، حتى مع إيمانك أن تلك الحكايات هي محض أساطير خرافية لا أكثر، لا تستطيع أن تمنع نفسك من الإحساس بأن ثمة أماكن مميزة بأساطيرها عن أماكن أخرى، ربما هذا ما دفع كل من أرَّخوا للأماكن إلى ذكر سيَر أصحابها مهما كانت مُغرِقة في الخيال، فقد كانوا يعرفون جيدًا أن الحكايات هي روح الأماكن.

t.me/alanbyawardnsr

وإلا فمن كان سيهتم بقبة صغيرة مستترة وسط المقابر كقبة عمر بن الفارض؟!

على الرغم من أن ابن الفارض قد بدأ حياته فقيهًا، إلا أن ندّاهة الحب الإلهي قد نادته، ولسنين طويلة اعتاد أن يعتزل الناس مناجيًا ربه في جبل المقطم، من دون أن يصل إلى الفتح الإلهي، الذي هو ـ حسب الفهم الصوفي ـ دليل قبول الله لاجتهاد العبد في محبته!

ظل ابن الفارض على ذلك إلى أن قابل، ذات يوم، رجلًا عجوزًا عند المدرسة السيوفية، كان الرجل لا يحسن الوضوء. فكَّر «عمر» في الطريقة المثلى لنصحه من دون أن يجرحه أو يتكبَّر عليه، وفي اللحظة التي حسم ابن الفارض أمره وأيقن أن الرجل قد يكون أحسن منه عند الله، إذا بالعجوز يبادره قائلًا: سيفتح الله عليك في مكة المكرمة!

وعندما سأله مندهشًا: وكيف سأصل إلى الكعبة وليس الوقت موسم حج؟ أشار له العجوز بيده ببساطة، فإذا بـ«عمر» يرى الكعبة أمامه مباشرة!

الغريب في عمر بن الفارض ليس حكايته العجيبة، بل في حجم الجدل المستمر حوله حتى اليوم، على الرغم من أنه قد مات منذ ثمانمائة سنة!

t.me/atanbgawardmsr

جدلٌ مستمر وعنيف، فريق يراه سلطانًا للعاشقين وأهم صوفي مصري على الإطلاق، في حين يراه الفريق الآخر كافرًا بكل بساطة ووضوح!

في أيام السلطان الأشرف «قايتباي»، حصل خلافٌ عظيمٌ بين المشايخ في مصر على ابن الفارض، خلاف استدعى أن يتدخَّل السلطان بنفسه

ليحقق في الأمر، فأرسل يستفتي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، الذي حسم الموضوع وأفتى بأن عمر بن الفارض ولي من أولياء الله الصالحين وأن كلامه مثل كلام الصوفية، لا يجوز أن نفهمه على ظاهره.

هذا الخلاف كان بعد وفاة ابن الفارض بنحو ٢٥٠ سنة!

المدهش هنا ليس الخلاف في حد ذاته، بل في السر «الباتع» لعمر بن الفارض، الذي جعل مؤرخًا كابن إياس الحنفي يتتبع مصير كل مَن شاركوا في هذا الجدل ليثبت في نهاية الأمر أن من كفَّروا ابن الفارض قد خربت بيوتهم بطريقة أو بأخرى، أما من دافعوا عنه وناصروه فقد أكرمهم الله وفتح لهم أبواب رزقه!

الاعتقاد ذاته بسره «الباتع» مستمرٌّ إلى اليوم بصورة أخرى؛ حيث يؤمن مريدو ابن الفارض أن قفل مقامه لا يستطيع فتحه سوى المحبين المخلصين، أما المنافقون فيعجزون عن فتح القفل، فلا يرحِّب ابن الفارض بزيارتهم إياه!

أمام قبة عمر بن الفارض في سفح المقطم، أتذكَّر كل أولياء الله الذين دُفنوا هنا وشكّلوا وجدان الناس لسنوات طويلة، ومع أن سيَرَهم وكراماتهم قد ذَوَت، ومريديهم قد نسوهم أو لحقوا بهم، فإن بقايا حكاياتهم كافية جدًّا لأن تجعل لسفح المقطم نفَسًا عجيبًا تُحسه ولا تملك له وصفًا ولا تفسيرًا!

t.me/alanbyawardmsr

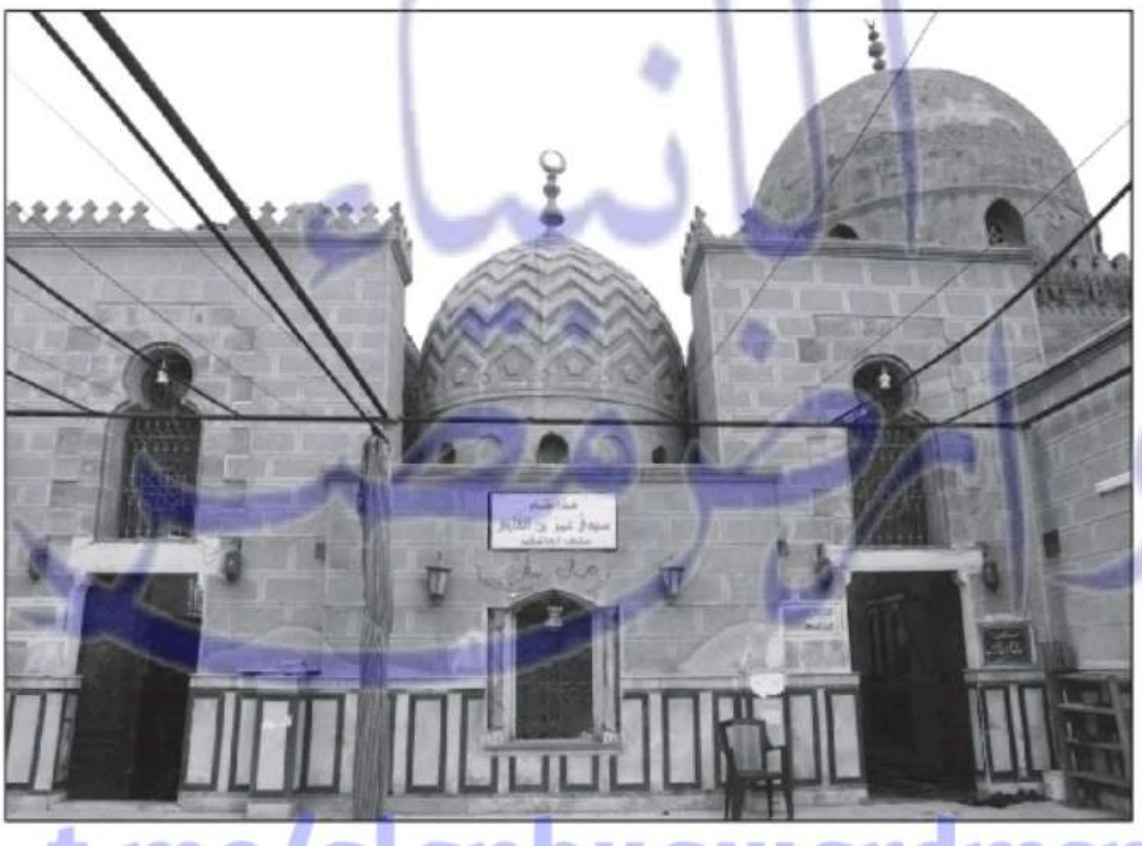

(مقام عمر بن الفارض)

t.me/alanbyawardmsr

المراجع

- ابن العسال (مفضل بن أبي الفضائل): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق د/ محمد كمال عزالدين السيد.
- ابن العماد (عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٨.
- ابن إياس الحنفي (أبو البركات محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٣.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج١١.
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه. تحقيق د/ محمد محمد أمين، ج٣.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٤.
- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي القاهري المالكي): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.
- ابن خلكان (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
- ابن زنبل الرمّال (أحمد بن علي): آخرة المماليك، تحقيق عبدالمنعم عامر.
- ابن شاهين (زين الدين عبدالباسط بن خليل): نيل الامل في ذيل الدول، ج١.
- ابن عبد الظاهر (محي الدين أبو الفضل عبدالله بن رشيد الدين عبدالظاهر بن نشوان بن عبدالظاهر المصري): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر.

t.me/alanbyawardmsr

- ابن عذاري (أبي العباس أحمد بن محمد): البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج١.
- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحي): مسالك الابصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سليمان الجبوري، ج ١٠.
- ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر) تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ج٣.
- ابن مفلح (إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد): المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ج٢.
- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل.
- أحمد شلبي بن عبدالغني: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق: د/ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم.
- أحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، ج٢.
- أحمد عبدالعزيز علي عيسى (دكتور): الصراع بين البيوتات المملوكية في مصر العثمانية.
- أحمد يشار أوجاق (دكتور): الدعوة إلى تصفية الدين، حركة قاضي زادة في الإمبراطورية العثمانية القرن السابع عشر الميلادي، ترجمة: رامي إبراهيم البنا، ورقة منشورة على الموقع الإلكتروني لمركز نهوض للدراسات والنشر.
- الأسعد ابن مماتي: الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش، برواية الحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق د/ عمرو عبد العزيز منير.
- الجبرتي (عبدالرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٤، نسخة إلكترونية من إصدار موقع مؤسسة هنداوي.
- السبكي (تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبدالكافي): طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ترجمة ١١٢٣
- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣.
- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن): الذيل التام على دول الإسلام للذهبي، تحقيق حسن إسماعيل مروة، ج٢.

t.me/alanbyawardmsr

- السكري (علي بن جوهر): الكوكب االسيار إلى قبور الأبرار، تحقيق: د/ محمد عبدالستار عثمان.
- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ٢.
- الشعراني (عبدالوهاب علي بن أحمد بن محمد الأنصاري): الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخيار. ج٢.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، ج ١٥.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): أعيان العصر وأعوان النصر، ج٥.
- الصيادي (محمد أبو الهدى): تنوير الابصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار.
- العليمي (مجيرالدين أبي اليمن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن): المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ج ٥.
- الغزي (نجم الدين محمد بن محمد): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج ١.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ج٤.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد) اتعاظ الحنفا بأخبار الإئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د/ محمد حلمي أحمد، ج ٣.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد): المقفى الكبير، ج ٧.
- النابلسي (عبدالغني بن إسماعيل): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز.
- الناصري (أبوالعباس أحمد بن خالد): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٨.
- النجدي (محمد بن عبدالله بن حميد): السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق: عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ج٣.
- إلياس الأيوبي: محمد علي سيرته وأعماله وآثاره.

t.me/alanbyguardmsr

- إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا.
- أكرم كيدو (دكتور): مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية.
- إلهام حسن دحروج: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- أيمن فؤاد سيد (دكتور): الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد.
- أيمن فؤاد سيد (دكتور): دولة سلاطين المماليك في مصر.
- جاير أندرسن: أساطير بيت الكريتلية، ترجمة: تامر الليثي.
- جرجي زيدان: مصر العثمانية.
- جمال كمال محمود محمد: نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.
- حسن أحمد البطاوي (دكتور): أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك.
- حسن البوريني وعبد الغني النابلسي: شرح ديوان ابن الفارض، جمع رشيد بن غالب الدحداح.
- حسن عبدالوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ج١.
- خالد فهمي (دكتور): كل رجال الباشا.
- سعاد ماهر محمد (دكتورة): مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج ٣.
- سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام.
- سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور): المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك.
- عائشة التهامي، هاني محمد رشدي، ريهام إسماعيل عبد المولى: دراسة وصفية للتكية الرفاعية بمنطقة حي بولاق أبو العلا، المجلة الدولية للتراث والسياحة والضيافة، تصدرها كلية السياحة والفنادق جامعة الفيوم، المجلد ١١، عدد (٢/ ١) سبتمبر ٢٠١٧.
- عارف تامر: تاريخ الإسماعيلية، ج٣.
- عبد الأمير الأعسم: تاريخ ابن الريوندي الملحد.
- عبدالرازق إبراهيم عيسى (دكتور): تاريخ القضاء في مصر العثمانية.
- عبدالرحمن الرافعي: تطور الحركة الوطنية ونظام الحكم في مصر، ج٢.

t.me/alanbuaardmsr

- عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي.
- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم (دكتور): فصول في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني.
- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم (دكتور): الريف المصري في القرن الثامن عشر.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور): المغاربة في مصر في العصر العثماني.
- عبدالكريم عزالدين الأعرجي (دكتور) وخالدة عبدالإله عبدالستار: الغناء والموسيقى في العصر المملوكي، مؤلَف بدائع الزهور لابن إياس أنموذجاً، مجلة التراث العلمي العربي.
- عبد المنعم ماجد (دكتور): طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر.
- علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، ج ٥.
- عماد أحمد هلال شمس الدين (دكتور): موسوعة الإفتاء المصري (من الصحابي عقبة بن عامر إلى الدكتور علي جمعة) ج٢.
- فتحي حافظ الحديدي: التطور العمراني لشوارع مدينة القاهرة من البدايات حتى القرن الحادي والعشرين.
- فرهاد دفتري: خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين، ترجمة: سيف الدين القصير.
- محمد أبو العمايم (دكتور): آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني، ج ١.
- محمد سهيل طقوش (دكتور): تاريخ الدولة الصفوية في ايران.
- محمد صبري الدالي (دكتور): فقهاء وفقراء (اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية).
- محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.
- محمد قنديل البقلي: الطرب في العصر المملوكي.
- محمد كامل حسين (دكتور): طائفة الأسماعيلية (تاريخها ونظمها وعقائدها).
- محمد مصطفى حلمي: ابن الفارض والحب الإلهي.

t.me/alanbyawardmsr

- محمد محمد أمين (دكتور): الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر.
- محمود حامد الحسيني (دكتور): الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة.
- مروة حسين مرسي محمد: الآثار الإسلامية بحي الجمالية في العصر العثماني وتنشيطه سياحياً، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية السياحة والفنادق، جامعة حلوان سنة ٢٠٠٨م.
- مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الاسماعيلية.
- موفق الدين بن عثمان: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، تحقيق: محمد فتحي أبوبكر.
- من مفاتيح الفرج لترويح القلوب وتفريج الكروب (بدون مؤلف).

الأنبياء وأرض مصر

يمكنك معاينة المراجع بشكل تفصيلي من خلال QR CODE

t.me/alanbyawardmsr

المحتويات

الأسد زُريق وبركة الزئبق! ١٣
سليل بناة القاهرة! ١٧
جامع سيدنا الفاكهاني ٢١
كرامة «الدينوري» التي تسببت في قتل ابن معصوم! ٢٥
مسجد علي المُطهَّر.. مكانٌ واحد وحكايتان ٢٩
نبوءة الصالح طلائع ٣٧
تأملات في قبة الصالح نجم الدين أيوب ٤١
الرُّكن المخلَّق ٤٥
قيسارية البطل الأشقر! ٤٩
الهارب إلى التتار! ٥٣
كابوس العصور الوسطى في جامع الحاكم! ٥٧
حكاية كل هرماس! ٦١
زاوية الموسيقار الحنبلي! ٦٥
«أبو العلا».. السلطان المتحوِّل! ٦٩
كَفر «قايتباي»! ٧٣
ما فعله ابن مماتي في قراقوش! ٧٧
حرق إصبع الشهيد! ٨١
«صرغتمش» والجنيهات الخمسة! ٨٥
يلبغا العمري.. القاتل والمقتول! ٨٩

t.me/alanbyawardmsr

سطوة الأماكن ٩٣
علي الكسيح.. نهاية مضحك السلطان! ٩٧
رد اعتبار زادة العجمي في الشيخونية! ١٠١
«قرقماس».. جبل الأهرام الذليل! ١٠٥
اللص الذي بنى ثلاثة مساجد! ١٠٩
صاحب القبتين الذي كاد أن يغير التاريخ! ١١٣
ابتهالٌ مُتخيّل في قبة السلطان حسن! ١١٧
المسمار الأول في نعش المماليك! ١٢١
الولي والكلاب! ١٢٥
في حوش مدرسة الغوري.. خفف الوطء! ١٢٩
خاير بك.. وابتكار «شك الباذنجان»! ١٣٣
ما فعلته السياسة بالتاجر الإيراني على باب زويلة! ١٣٧
محرقة الصالحية! ١٤٣
المحمودية.. وأول اغتيال بالرصاص في تاريخ مصر! ١٤٧
الدعوة لهداية أهل مصر من الضلال في جامع المؤيد شيخ! ١٥١
الكخيا.. عندما ينقلب السحر على الساحر! ١٥٧
ما حدث لأبي الشرامبط في الخيامية! ١٦١
الشيخ الدردير.. أحد مفاتيح الفرج! ١٦٥
المروءة التي تسببت في بناء جامع الدردير! ١٦٩
مراد بك.. وخراب الإقليم المصري! ١٧٣
لحظة جنون في تكية الرفاعية! ١٧٩
سحورٌ أخير عند سبيل أودة باشي! ١٨٣
لطيف باشا.. حامل المفاتيح التي قتلته! ١٨٧

t.me/alanbyguardmsr

سبيل ماء على روح ابن الباشا! ١٩١
عن روح «الودنلي» في اللبودية.. ..... ١٩٥
الأزهري الوحيد الذي رفض أن يشهد زورًا! ١٩٩
أزمة الصابون في سبيل نفيسة البيضا! ٢٠٣
حرق الدرويش الموصلي في شارع بين السيارج! ٢٠٧
حكايات بيت الكريتلية ٢١١
التحولات العجيبة لجامع بشتاك! ٢١٥
«الرفاعي» وسر الشباك! ٢١٩
جاهين الخلوتي.. باع دنياه مقابل لحظة الخشوع! ٢٢٣
قبة ابن الفارض وسره الباتع! ٢٢٧
المراجع ٢٣١

t.me/alanbyawardmsr